

ملكتبتي ١٠

الغراب التائه

وقصص أخرى

بقلم الدكتور : فتحى الصنفاوى
رسوم : عزيزة مختار



دار المعارف

تصميم الغلاف

محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف ١١١٩ شارع كورنيش النيل ج . م . ع .

انتَابتِ الْغراب حالةٌ شديدةٌ من اليأس والقَلق، وضَاقَتْ به حياتُه ممَّا يلاَقِيه وعَشِيرَته منْ كَرَاهية المخلُوقَات الأُخْرىَ، خاصةً الطُيُور وَبني الإنسَان، وقرَّر البحث عَنْ حُلُول جِذريَّة لَما يعانُونَه مِن المُضَايقَاتِ والمشَاكِل الحَياتيَّة والنفسيَّةِ التي يعانُون منْهَا، لاَسيَّمَا وهُم يبحثُونَ دائمًا عن الأشْجَار المُرتفعَة فِي الأمَاكِن الخِربَة البَعِيدَة عَن العُمرَان، يبنُونَ فيهَا أعشَاشَهُم ويتَّخذُونها مسْتَعمرَةً خَاصَّة يْنَزوُونَ بهَا بعيدًا عَن الآخَرينَ، فالغِربانُ يَعتَبرون أنْفُسَهُم فَصِيلةً متَميزةً مِن الطيُور لَهَا شَرَائِعُهَا ووَسَائِلُهَا وأسَالِيبُهَا فِي الحَيَاةِ، وَلَهُم طُرُقُهُم الخَاصَّة فِي الحصُول علىَ مَعاشِهم، ولاَ يَجِدُونَ حرجًا فِي الحصُول علىَ احتياجَاتِهم بأيَّةِ وسيلة مشْرُوعَةٍ أوْ غَيْر مشْرُوعَةٍ، لِذلكَ تبتَعِد عَنْهُم بَقِيَّةُ الطيُور حتَّى التِي تَنتَمِي مِنهَا إليهمْ بِصِلَة القَرَابَةِ، والْجَمِيعُ يتَحاشُونَهُم وينْفِرُون منهُم وغَالِبًا مَا يَرفضُونَ التعامُلَ مَعَهُم، وَكذلِكَ لاَ تُرحِّبُ بهِم وَبجِيرَتِهم المخْلُوقَات الأخرىَ مَهمَا حَاولُوا التَّوَدُّدَ إليهم.

ويْعجَبُ الغُرَابُ كَثيرًا لتلكَ التَّصَرفَاتِ التِي يعتَبرها عَدَائِية بالنِّسبَة لَهُم، هذَا علَى حَدِّ تفْكِيره، وَلاَ يَجِدُ تفسيرًا مقبولاً يعجبُه يُبَرِّر به تَصرُّفَاتِ بَقِيَّةِ الطيُور حِيَالَهُم، نَاهِيكَ عمَّا يُحِسُّ به البَشَرُ مِنْ بَنِي الإنسَانِ تِجَاهَهُم، ودَائمًا مَا يَسْأَلُ الغُرَابُ نفسهُ:

لِمَاذا تعَامِلنى بقيَّةُ الطُّيُور ومُعظَمُ البشَر والحيوَانَاتِ بِهَذا الجفَاء..؟ ولِمَاذا لاَ يُعْجبُهُم شَكْلِى ولَوْنِى الأسْوَدِ وصوْتِى الخَشِن الأجَشّ..؟، والله لا ذَنبَ لِى فِى ذَلِكَ فَقَدْ خَلَقَنِى رَبِّى سُبحَانَهُ وتَعَالَى عَلىَ هَذِه الصُّورَةِ لِحكمَةٍ وَأسبَابٍ لاَ نعْلَمُهَا..، وَإنَ كُنتُ أعْتَقِدُ فِى قَرَارَة نفسى أنِّى لَسْت ضَارًا ولاَ مُؤذيًا إلَى هَذَا الحدِّ،.. صَحِيح قَدْ تبْدُو مِنِّى بعَضُ التَّصَرفَاتِ الغَريزيَّة التى قد تُضَايق الآخَرين، وَلكِنى فِى الحقِيقَة أحَاول قدرَ استِطَاعتى أنْ أكُونَ طيبًا مسالمًا،

أوْ علىَ الأَقلِّ أتظَاهَرُ بذلك..، وأحَاولُ أنْ أبتَعِدَ عنَ بقيةِ المخْلُوقاتِ كَالمَنْبُوذِ..، أمَّا إذا اشْتَدّ بىَ الجُوعُ أوْ بىَ الحَاجَةُ، سَاعتَهَا أجِدُ نفْسِى مُسَيّرًا مُرغمًا علَى فِعَل بعْض التصرّفَاتِ التِى قد تُسِيءُ للآخَرين، ولكِنْ مَا ذنْبى..!!.

«فعلاً..، أعْترف بأنّى كَثيرًا مـا أضطَـرُّ إلىَ الاستِيلاءِ علَـى أعْشَـاش الطُّيُـور الصَّغيرَةِ أو الضَّعيفَة، وإلىَ خطَفِ صِغَار الطيور الأخْرَى مِن أعْشَاشِـهَا أوْ أقتَـاتُ علَى بيْضِهَا، وقـدْ أنـزلُ إلى الأرْضِ لاخْتطِـاف صغَـار الطيُـور المنْزليَّـةِ أو سَـرقَةِ غِذائِهَا، وسلب أغذيَةِ الفلاّحِينَ الموْضُوعةِ تحـت الشَّـجَر حيـنَ يبتَعِـدُونَ عنْـهَا دَاخِلَ حُقُولِهم، وَصَحِيحُ أنِّى.. وأنّى..».

وقدْ حَاول الكَثيرونَ نصْحِى ولفْتِ انتبَـاهِى إلىَ أنَّ الحصُـولَ علـىَ ضَرُوريـات الحَيَاةِ بشكْل مشرُوع، وأنَّ الحبَّ والوئامَ والتعايُشَ فِى سَلامٍ ، هىَ أقصَرُ الطرُقِ إلىَ حياةٍ هَادئَةٍ سعيدة بلاَ متَاعِبَ أو مُنَغصَاتِ بيْنَ بقِيَّة مَخلُوقَاتِ الله.

ولَكِنى أتعَجَّبُ غايَة العجَبِ وأسْأَلُ نفسِى دائمًا.. لِماذا يزْعِجُهُم صَوتِى حِينَ أنعَق منَادِيًا علَى زُمَلاَئِى..؟ ولَمَاذا تجْفَل الطيُـور والحيَوانَـاتُ الصَّغِـيرَة وتـهْرب مِنَ قربى وتتَحفَّزُ الطيورُ الكبيرة نَوْعًا لملاَقَاتِى ومهَاجَمَتِى وطردِى مـنَ المكَـان..؟ أمَّا بَنِى البشَر.. فحَدِّثْ عنْهُم بلاَ حَرجٍ، فمِثْلى مِثْلُ جَارَتِى - البُومَة لاَ تَسُـرهُم رُؤيَتُنَا أوْ سَمَاع أصْوَاتِنا، بل يتشَاءَمُونَ ويتَضَايقُونَ مِنْ مُجرَّدِ تَواجُدِنَا ويتوقَّعُـون دَائِمًا حدُوثَ ما لاَ يُحمَدُ عقْبَاهُ، وقَد ينهَالُون عَلينَا بالحجَارَةِ واللَّعنَاتِ والشَّتَائِم قَائِلينَ عَادةً:

(هَيَّا ارحَلْ يَا قبِيحَ الوْجه يَـا أسْـوَدَ اللَّـوَنِ، هيَّـا يَـا عَيْـنَ السُّـوءِ يَـا غُـراب البين)..

وَلكنى أعْلَم عِلْمَ اليَقِين.. أنَّ لنَا نحنُ معَشـر الغِربَـان بَعْـضَ الفضـل والفـائِدَة لِبَني الإنسَان..؛ ألَم يبْعَثِ الله سبحانَهُ وتعَالَى أحَد أجْدَادِنَا لِيُعلِّم الإنسَانَ وهُوَ أقلُّ مِنْه شأنًا..، ألمْ ينبشْ جدُّنَا فِي الأرْض لِكَي يدفِن أحَدَ إخْوَتِـه ثُـمَّ يغطِّيـهِ بالتُّرَابِ، فيَقلّدُه الإنسَانُ المدْعو – قَابيل حِينَ أقْدَمَ علىَ قتل أخِيـهِ الطَّيـب – هَابِيل ليُوارىَ جُثَّتَهُ!!!، ألاَ نُسَاعِدُ الفلاَّحَ فِي تنْظِيـفِ أرْضِـه وتَخلِيصـهَا مـنَ الحشرَاتِ واليَرقَاتِ والدِّيدَان الضَّارَّةِ لنتَغَذَّى نحنُ عليها فِي المُقَابل.

أمَّا أكْثر مَا يحزُّ فِي نفْسِي ويُؤلِمني، فهُوَ ابتهَاجُهُم وسرُورُهم لِرؤيـةِ جَارنَـا الطِّيبِ – أبوُ قِردَان، فهُو يهرَعُ مِثْلَنُا متقَافِزًا خلْفَ محَاريثهم يقتَلِعُ الدِّيدَانَ منْ أرْضِهِم، ولكنَّه يفعَلُ ذَلِك وهُـو مطْمَئِنٌّ فَـرِحٌ بـلاَ خـوْفٍ، وَذَلـكَ علـى عكْسِنَا تمَامًا.. لِمَاذا.. وَلِمَاذا..

□□□

دَارتْ هذِه الهَواجِسُ والمشَاعِرُ الحَزِينَـةُ فِـي نفس وعقْـل الغُـرَاب، وانتَابَتـهُ حَالةٌ مِن الاكتئاب واليأْس، وَفي ظلِّ تِلك الحَالةِ النفسِيَّة السَّيئةِ، قـرَّر التفكـيَر بجِدّية فِي إيجَاد الحلُول المُنَاسِبَة لمشَاكِلهم الأزَليَّة، لِذَا.. قرَّر علىَ الفـور البْـدء في الطوَافِ عَلَى كُلِّ تَجمعَـاتِ الغِرْبَـان المشَـتَتْينَ فِـي طـول المنْطِقَـةِ وعرْضِـهَا، وإيفَاد مندُوبينَ لـهُ مِـن بيْـن أصدِقَائـهِ المقَربيـنَ، يحمِلـوُنَ إليـهمْ رَسِائل تدعُـو حكمَاءهُم وزُعمَاءَ طَوائِفِ الغربَان للاجْتِمَـاع فِـي مَكـان وزمَـان معَيّـن مـن أجـل التباحُثِ والتَّشَاوُر فِي أمْرهم، بعْدمَا تنَاقصَ عددُهُم كثيرًا بشـكْل يدعُـو لِلقلَـق، وبعد أن ندَر الحصُولُ علَى الغِذاءِ بسُهُولةٍ ويسْر نتيَجةً لِزيَـادةِ وسَائِل التَحضُّـر والعمْرَان، وَكثْرَة استخِدَام الإنسَان للمُبيدَاتِ الحشَريَّة التِي قضَتْ بِشَكْل مبَاشـر وغَير مباشِرٍ عَلَى مِئاتٍ الألُوفِ مِـنَ الغِرْبَـانِ والطُّيـوُر الأخْـرى، وهُـوَ مـا يُـهدِّد طَائِفتَهم بالانْقِرَاض.

وَفِى الميعَادِ المحدُدِ حضَرَتِ وفودُ بَنِى غُرَابٍ متَسللةً إلى مكـان المؤتَمـر الَّـذِى عُقِد فِى مكَان خَرب نَاءٍ بَعيـد جـدًّا عـن العمْـرَان، وكَـانَ التَّبَـاحث والتَّفَـاوُض لتحدِيدِ خُطَاهَم المَسْتَقْبَلِيَّة وأهْدَافِهمُ المَصِيريَّة، تمهيدًا لاسْتِدعَاءِ جَمِيـع الغربَـان للعَيْش مْجتَمِعينَ فِـى أمَـان - كمَـا يتصـوَّرونَ - ويشَـكلُون قـوَّةً كبـيَرةً تخـدُمُ أغراضَهُم وَمصَالِحَهُم التَّوسُّعِيَّة والاسْتِيطَانِيَّة، والاسْتِيلاَء علىَ أشـجَار وخـيَراتِ المْنطِقَة الَّتى سيَخْتَارونَها، تحقِيقًا لتجَمعِهم فِى الجنَّـةِ الموْعـودَةِ التِـى يَحْلمُـونَ بهَا، وَليوَاجِهُوا بشَكْل مبَاشِرٍ كَرَاهِيةَ بقِيَّةَ المخْلُوقَاتِ لَهُم.

وَفِى كلمَته العصمَاءِ الَّتِى ألقَاهَا الغرابُ الزَّعِيمُ، حدَّد لَهُم أهْدافَ هذَا اللِّقَـاء، ثُمَّ تَدارسُوا المْوْقِفَ مِنْ جَمِيع زوَايَاه، وبعْدَ منَاقَشَاتٍ ومُـدَاوَلاَتٍ طَويلَـةٍ صَاخبـةٍ قرَّروا مَا يَلِى:

أولاً: البْحثُ عنْ مكَان يصْلُحُ لإقَامَةِ تَجَمعِهم الكَبِـير، بحيْـثُ تَنطَبـق عليْـهِ الشُّرُوطُ التِى تَتَّفِقُ مَـع طبِّيعَتِـهم وَأحْلاَمِـهم، لِيُشـكلوا قـوَّةً ضَاربـةً تُرَهِـبُ مَـنْ يُعَادِيهم، ولَوْ أدَّى الأمْـرُ إلى الاَسْـتِيلاَء علَـىَ أىِّ مكَـان لِلغِـير، واسْـتخدامِ كُـلِّ الوَسِائِل فِى سَبيل تحقْيق ذلِك، سَوَاءٌ بالقوَّة أو الاحتيَـال أوْ الادِّعَـاءِ بملكِيَّتـهم التَّاريخِيّة لِهذَا المَكَان.. الخ، إلىَ جَانِب العمَل علَى مهَادَنَةِ وتملُّق بعضَ أنـواع الطيُور الكبيرَةِ الجَارِحَةِ والكَاسِرَة، حتَّى يُسَاعدوهُم فِى إرْهَابِ الآَخَرينَ وطَرْدهمَ واحْتِلالَ أشجَارهِم وأعْشَاشِـهم، وَلـو اضْطـرُّوا إلى إهدَائِـهم بعـض مَـا يسْـرقُونَه ويسْلُبُونه ويحْصُلونُ عليْه مِن غِذاءٍ وَخِلافه مـهما تَحمَّلُـوا فِـى سَبِيل ذلـكَ مـن الجُوع والمَتَاعِب.

ثانيًـا: العَمـلُ علَـى بَـثِّ الفِتَـن والعَـداوَهِ وَإثـارَةِ البغْضَـاءِ بيْـنَ بِقِيَّـة الطيُـور والحَيَوانَاتِ، حتَّى ينشغِلُوا بالمُشَاحنَاتِ والاخْتِلافَاتِ الطَّائفية والعِرْقِيَّة والقَبليَّة بيْنَهُم، وينْسُوا متَاعِبهُم مَعَ الغِربَان ولو مُؤقَّتًا، عمَـلاً بمبـدأ - فَـرِّق تَسُـد - ،

وَإن أدَّى الأمْرُ إلَى إستخدَام كُلِّ الطرق المشرُوعَةِ وَغير المشْرُوعةِ كالسرقَة والسَّلبِ والنَّهْبِ والنَّصْبِ والاحْتِيَال ونَشرِ الفسَادِ، والاعتدَاءِ والقتل إنْ كَانَ لاَ مفرَّ مِنْهُ.

ثالثًا: ترْبيَةُ وتَنْشئة صِغَارهم معتقِدين أنَّهم سَادَةُ الطّيور والمخلُوقَاتِ، وَأنهُم القَادِرونَ دوُنَ غيْرهم عَلَى استغلاَل أخْطَاءِ الآخَرين، وأن كُلَّ مَا لِلغيْرِ مباحٌ لَهُم ومُحرَّمٌ عَلى الآخَرينَ وأنَّ.. وأنَّ.. الخ.

وهَكذا بَدأ تنفيذُ الخُطَّةِ الموضُوعَةِ بكُلِّ دِقَّةٍ، وشرَعُوا فِي البْحثِ فورًا عَن المكَان الموَعودِ المنَاسِب، وحرصُوا على أنْ يكُونَ فِى منْطِقة متَّسعةٍ وَسَطَ، تَقعُ علَى مسافَةٍ غيْر بَعِيدَةٍ منَ المنَاطِق الغَنيَّةِ بالحدَائِق والمزَارع والودْيَان والأنهَار العذبَةِ والبحَار الَّتِى تحفِل بخيراتِ الله من كُل لَوْن.

وحتَّى لايَلفِتُوا الأنظَارَ إليهم، شَرعُوا فِى الهجْرةِ والانتِقَال إلىَ مكانِهم المخْتَار فُرَادَى أو فِى جمَاعاتٍ صغَيرةٍ، تتسَلَّل لِتُقيم فِيه بيْن بقيّة الطيور الَّتِى لَمْ تُلق لهُم بالاً فِى البدَايَةِ، بلَ رحبُوا بهم وتَقبلُوهُم بسُرور، وَسرعَان مَا تضَاعَفَتِ أعدَادُهم وضَاقَتْ بهم أعْشَاشُهُم، وَبدَءُوا فِى الاستيلاءَ علَى أعشَاش بَقِيَّةِ الطيُور بالحِيلَةِ أو بالقوةِ أوْ بالقَتْل إذا لَزمَ الأمْرُ، وَبذِلكَ اضطَّرتِ معْظَمُ الطيُور مَن العصَافِير والبَلابل والحمَام البَرى واليمَام، وجماعَاتِ الهُدْهُدِ وَأبى قِردَان وغَيْرهم إلىَ تركِ المكان خوفًا من بطْشِهم، بعد أنْ حَاولُوا التفاوُضَ مَعَهُم دُونَ جدْوَى لاقتسَامِ المكَانِ، وخلْق جَوٍ منَ الوُدِّ والتَعايُش السلمِى بيْنَ الجَميع.

وهَكذا تَحوَّل المكَانُ إلى مسْتَعمرَةٍ أوْ دولَةٍ خاصَّة بالغرْبَان دُونَ غيْرهِم، ولَكِن هَلْ سَتَصبِرُ بقِية الطُيور علىَ هذَا الاحْتلاِل الغاشِم لِموطِنهم الَّذِى تَربَّوْا وعَاشُوا فِيه سَويا دونَ مَشَاكِل، فالجمِيعُ هنا كانُوا متعَاونين فِى حُبٍّ وإخَاءٍ وتعاطُفٍ، لا يعتَدى أحدُ علىَ جَاره بلْ يحترمُ خصُوصِيَّاتِه ولا يتدخَّلُ فِى شئُونه،

ويرْعونَ جميعَ الصِغَار دونَ تَفْرِقَةٍ أو تحَـيُّز لِلَـونٍ أوْ لِشـكلٍ أوْ لنـوعٍ أوْ لِفصِيلَـةٍ مُعَينة.

لِذلك كانَ علىَ جميع الطيُّور التَّكاتُف والتَّوَحُّد فِى سَبيل مواجَـهةِ المْعتَدِيـنَ، وقررَّتْ كُلُ طائفَةٍ وفَصيلَة مِنهُم إيفادَ مندُوبـينَ عنْـهم للاجْتِمَـاع العـاجِل الَّذِى أقِيم فِى مَكان أمـينٍ، بحثُـوا فِيـه جَوانِـبَ الْشـكلَة ودارَتْ بينَـهُم المفَاوَضَـات والمُناقشَاتُ الحَادَّةُ والصَّاخِبَة أحْيَانًا، وطرحَت فِيه الاقترَاحَات العديدَة المنْطِقية وغَيْر المنْطِقية أحْيَانًا.

وبينمَا كَانَت معظَمُ الآرَاءِ تَتفِقُ عَلَى أنَّ ما أخِـذَ بـالقُوَّةِ لا يُستردُّ إلاَّ بـالقُوَّةِ، كَانَ البْعضُ يَرَى أنَّـهم مَـادَامُوا لا يقـدِرون علـى مواجَهَـةٍ شَـامِلَة بيْنَـهُم وبيْـن الغِربَان، وبيْنَ مَنْ يُؤِّيدونَهُم مِن الطيُور الكَبيرَة الجَارِحَةِ والكَاسِرَةِ التى ارتبَطَت مَعَهُم بمَصَالِح وَأطْمَاع مشْتَرَكَةٍ، ويَـهْدِفوُنَ جميعًـا إلى الاستِيلاءِ علـىَ مقدرَاتِـهم وثروَاتِ الضُّعفَاءِ وتسْخِيرهم لِخْدمَتِهم، فإنَّه لا مَفَرَّ من مُهَادَنَتِـهم وتـرْكِ المكَـانِ لَهُم مُؤَقتًا حَتَّى يستَطِيعُوا أن يوحدوا صُفوفَهُمْ.

ومعَ مُرور الوقْتِ ثبَتَ خطأ هذَا الـرأى بَعـدَ أن بَـدأت تتَّضِـحُ بجـلاءٍ خُطَـط الغِرْبَـان التوسُّعِية، خاصَّـة حينمَـا بـدءَوُا فـى اسْـتجْلاَبِ بقيـة المشَـتَّتِينَ مِــن جنْسِهِم، وفتْحَ بابِ الهجْرَةِ إلِىَ جنَّتِهم الموعُودَة، بلْ واستَضَافُوا كذلِك مَجَامِيعَ كَبـيرة مِـن الطيُـور الأخْـرَى مِثـل أسْـرابِ الحِـدَأةِ والصُّقُـور والبُــومِ وغيْرهَــا، واسْتَخْدَامِهم كَأدَواتٍ للإرْهَابِ والتَّعدى وفَرض الأمْر الوَاقِع.

وَأخيرًا وبعد جُهْدٍ كَبير اتَّفَقَتِ الطُّيورُ مجتَمِعَةً علىَ تنظِيم صفُوفِـهم، وبَـدءوا فِى تنفِيذِ خُطَّـةِ المَقاطَعَـةِ الشَّـامِلة لِلغرْبَـان وحُلفَائِـهم، فـلاَ تعَـاوَنَ ولاَ تَفـاوُضَ لإقَامـة أىَ نـوْعٍ مـن العَلاقَـاتِ معَـهُم، بـل بعَثُـوا برسَـائِل لجِمَيـع الحيوَانَـاتِ لمُسَانَدتهم فِى موقِفهم المشْرُوعِ، دفاعًا عَنِ الموْطِن ومستقبَل الصِّغَار، كمَا تعَاطفَ



مَعَهُم بنُو البشَر وقرَّروا عَدَم السَّمَاحِ لِبنِى غُراب بنزول حقُولهم، والاستْعدَادِ لمَوَاجَهتِهم وطرْدِهم لو حَاوَلُوا الاقتَرابَ منْ منازلهم، وَفِى نفْس الوقْتِ تَم فتْحُ بَابِ التطوع للانضِمَام إلىَ كتَائِب الفِدَائِيِّينَ المُقَاتِلين مِن الطيُور القَادِرَة، لِتَقُومَ هِيَ الأخْرى بعمَل غارَاتٍ انتقاميةٍ علَى فلُول الغِربَان، وتحطِيم أعشَاشِهم وقطْع خُطُوط إمدَادَاتِهم وطرْدِهم بشكْلٍ تَدريجى أىَ بمَا يُشْبه حرْبَ العِصَابَات وحرْب الاستِنزَافِ.

وإذَا كانَ الغِربَان قَدْ استولوا علَى المكَان شَجَرَةً شجرةً .. وَقطعَةً قِطعَةً، فلتنزعْ مِنهم كَذِلكَ وبنفْس الأسْلوُب، واتِّبَاع سِيَاسَةِ النفَس الطَّويل بعْدَ أنْ تَتَكَتَّلَ الجُهُود وتعَبَّأ كلُّ الإمْكانِيَّات فِى سِبيل النصْر والتَّحرير علَى المعْتَدينَ، ولْيتَعاون الجميعُ كِبَارًا وَصِغارًا فِى سبيل هذَا الهدَفِ الأسْمَى، فالكُل يَجِب أنْ يُشَاركَ بِمَا يسْتَطِيعُه، ومَنْ لاَ يَستَطِيعُ القِتَال والجِهَاد فعَلَيْهِ المسَاهَمة فِى مُسَانَدةِ المْجهود الحرْبى، وتوفِير الغِذَاء للمقَاتِلينَ وَرعَايَةِ ذَويهم وَصِغارهم أثنَاءَ غِيَابهم، كمَا شُكِّلت مجمُوعَاتٌ مِنَ الطيُور القوِّيَةِ والكَبيرَةِ، تَتَولَّى حِرَاسَة الأشجَار والأعشَاش وَمهَاجَمَة كُلِّ منْ يحَاولُ الاقْتِرابَ مِنهَا خاصَّةً مِنْ الغِرْبَان، بعْد أنْ انخرَطُوا جَميعًا فِى دَوراتٍ تَدريبِّيةٍ علىَ فنوُن القِتَال والدفَاع عَن النَّفْس.

ظلَّتِ الطيُورُ علىَ هَذِه الحَالَةِ العصيبةِ تُكافِحُ فِى سَبيل موطِنهمْ وحقِّهم المَشْروع فِى الحَياةِ الآمِنَة فترةً ليْسَت بالقصِيرَة، تحمَّلوُا فِيهَا الكثيرَ مِن العَنَتِ وَضِيق الحَال، بسبب حَالَة التَّعْبئةِ الَّتِى استَنفَدَتْ مُعظَم مَوارِدِهم وجُهُودِهِم، كمَا سَقَطَ مِنْ بَيْنِهم الْكَثِير مِنَ القتلىَ الشُّهَدَاءِ وَالمصَابينَ والمَفْقودِينَ، تَولىَّ الباقوُنَ رعَايَتَهُم وَرعَاية ذَويهم وَصِغَارهم.

وَبعد صبر طَويل بَدأتْ تلوُح بشَائِرُ النَّصْر، فقَد بَدأت أعْدَاد الغِرْبَان تَتنَاقَص كثيرًا بعْد أن أصَابُوا وقتلُوا منهُم أعدادًا كَبيَرةً، وفِى نفس الوقْتِ وجَدَ مُعظَمُهم

أنَّه قَدْ غُـرِّرَ بـهِم واسْتَدرجُوهُم لأهْـدافٍ ومطَـامِع خَاصَّـة وشَـخْصِيَّة، والأرضُ صَارَت جَحِيمًا ومقابر لَهُم، ولَم يَجِدُوا بها جنَّتَهمُ الموْعُودَة، بل وَجدُوا أنْفُسَـهم فِي حَالة استنفار دائم مُهَددونَ بالموتِ والطَّرْدِ فِي أىِّ لَحظَةٍ، ولَم يحِسُّوا بطْعـم الرَّاحَةِ والاسْتِقْرَار، وكَانَتِ المقَارَنَةُ وَاضِحَةً جلِيَّة بيْنَ ما كَانُوا عليْهِ فى مَقارهم السَّابقة التى جَاءُوا مِنْها، وبيْنَ المصَاعِب والمتَاعِب الحَالِيَّة.

لِذلكَ قرَّر مُعظَمُهُم الفِرارَ والْعـودَةَ إلى دِيَـارهِم، وبَـاتت خُطَـطُ زعمَـاءِ الغِربَـان مُهدَّدَةً بالفشَل الكَامِل، وتدريجيًّا بَـدأتْ فُلُولُـهم تَـترك المنطَقـة تِباعًـا، ورجـعَ اللاجئُونَ وأصحَاب المكَان إلى أعشَاشِهم وَديَارهم، يَعْمرُونَهَا مِـنْ جَديـد بَعـد أن خرّبَها الغُزَاةُ ونَهَبَها الغِربَانُ المُغْتَصِبُونَ، حتَّـى عَـادَت المنِطَقـةُ بأكمَلِـها نَضـرة يَانعِـةً بأشْـجَارهَا البَاسِـقَة كَأنَّـها فَرحـة بعـودةِ أهلِـهَا، تُشَقشِـقُ وُتَغَـرِّدُ فوْقَـهَا العَصَافِيرُ وتُغَنىِّ البلاَبلُ، وتمرَح بين أغصْانها صِغَارهُم فِي طفوُلـة بَريئـةٍ لاَهِيـةٍ فى أمانٍ مقيمٍ، وانْكشَـفَتِ الغُمَّـة وحَـلَّ السَّـلامُ والوِئَـامُ والتَعَـايشُ بيْـن جَمِيـع المخلوقَاتِ.

أمَا بَقيةُ الغِرْبَان فَقد رجَع كُـلٌّ مِنـهُم إلىَ موْطِنِـه، وكَـانَ مِـن المْكِـن القَضَـاءُ عليْهم وَإفنائِهم عَنْ آخرِهم، لولاَ أنَّ بَقيَّةَ الطيُور المتعَاونة كـانَتَ حَريصَـةً علـى عَدمَ إراقَة الدِّمَاءِ بدُون دَاعٍ، وتَركُوهُم يَرْحلُونَ بسَلام بعْدَ أنْ تعـهَّدُوا ألا يعُـودُوا إلىَ هُنَا ثانِية، وعفوا عَنْهُمْ والعفو مِن شِيَم الكِرَام.

أمَّا صَاحِبُنا الغُرَاب الزَّعِيـم، وهـو الَّـذِى تَربَّـى وَنشَـأ وعَـاشَ سَـنَوات عُمْـره بحلْوهَا وَمُرِّها فى هذه المنِطَقَـة الطَّيبـةِ، بيْـنَ جيرَانـهِ مـنَ الطُّيُـور والحيَوانَـاتَ والنَّاس الطيِّبينَ، الَذينَ تَحَمَّلُوه ببذاءَاتِـه وسَـيِّئَاتِه المْستمِرَّة، محـاولين تقْويمَـه وَإصلاحَه دُون جدْوَى، فقَـدْ وَجَـدَ نفسَـهُ وبعـضَ رفاقـهِ وحدَهـم منبُوذِيـنَ مِـنَ الجَمِيع بلاَ سنَدٍ أوْ مُعِين يشَاركُهم حيَاتَهُم وأمَانِيهم، واضْطَرُّوا إلَى الابتعَادِ عَن

بَقِيـة الطُّيُـور والمخلُوقَـاتِ، خاصـة بعْـدَ أنْ رفضُـوا أنْ يُشَـاركُوهم أوْ يُجَـاورُوا أعشَاشَهُم فِى شجرةٍ وَاحِدَةٍ، كمَا تَكفَّل الفلاَّحُـونَ بطَرْدِهـم وَعَـدم السَّمَاحِ لَـهم بالنزول إلىَ أراضِيهم، ومُشَارَكِة أبَـى قـردان وغـيْره فِـى الحصُـولِ علَـى الغِـذَاءِ وتنظِيفِ الأرْضِ.

وَرغْم أنَّه حَاوَل التوددُّ والاعْتذارَ لِلجَمِيع عمَّا بدَر مِنْه وَمِن أقرَانِه، وَعَـرضَ أنْ يَعِيش بينَهُم فِى سَلام له وَعليْهِ ما لَهم مِـنْ حقـوق ووَاجِبَـاتٍ، وَلَكنَّـهُم رَفَضُـوا بِشدَّةٍ لأنَّهم يعلَمُون جَيدًا أنَّه مِـن فِئَـةٍ لاَ تحـترمُ المعَـاهَدَاتِ والمَوَاثيـق، ودَائِمـا تُحركُهُم غَرَائِزهُم وشَهَواتُهم وأحقَادُهم الأزَلِية علىَ منْ سِوَاهم مِنَ المخْلُوقَاتِ.

مـرَّت الأيَّـام ثقِيلـة مَريـرَةً علـىَ الغُـراب التَّائِـه، وضَـاقت عَليْـهِ الأرْضُ بمَـا رَحُبَتْ، وعزَم علَى ترْكِ المِنطقة كلِّها بعْد أن ازْدَادَتِ حيَاتهُ سُوءًا، يكَادُ الجُوعُ وَنَقْصُ الغِذَاءِ أنْ يفتِكَ بِهِ، ولَمَ يَعْد يَجْرُؤُ علَى سَرقة وخطـف الغِـذاء، فَـالعُيونُ مفْتُوحَة عَلْيهِ تُرَاقِبُه بلاَ انقطَاعٍ، ويخشَى أنْ يَصْدُرَ عنْهُ مَا يُكلِّفهُ حَيَاته كلَّـها، ولم يَجدِ مفرا من التَّفْكِير فِى تَغْيـير مجـرَى حيَاتِـه، عازمًـا عَلَـى أنْ يَفْعَـلَ أىَّ شىْءٍ يريحُه مِن متَاعِبه الشَخْصِية العصَبيَّة والنَّفْسيَّةِ، فقَد قرَّر الهرَبَ وَلكِـن إلى أيْنَ..؟ لاَ يدْرى ولا يعلمَ، وَلكِنَّ.. أرضَ اللَّه واسِعَةٌ، وعسَى أنْ يَجِدَ مَكانًا آخَرَ يُحَاولُ فِيه التَّأقْلُمَ والتَّعَايش بيْـن سُكانِهِ، وأنْ يُكَـافِح فِـى سَـبيل كبْـحِ جِمَـاحِ غَرَائزِهِ العُدْوانيةِ الَّتِى تَسَببَت فِى جَمِيع مشَاكِله ومصَاعِبهِ.

طارَ الغراب مُودِّعًا مرْتَع صِبَاه وهُو فِى شدَّةِ الأسَـى والنَّـدَم والتَّعَاسَـةِ، وظَـل يُرفْرفُ عَلَى هذِه الحال فترَةً طويلة بلاَ هُدى، ناظرًا حوْله لعلَّـه يَجِـدُ مَـا يشـد انتباهَهُ أوْ يُلفِتُ نظرَه، وهَكذَا مرَّتِ سَاعَاتٌ عَدِيدةٌ حتَّى أحَسَّ بالتَّعَبِ والجُوعِ والعطَش الشَّدِيدَيْن، ولَمْ يجِد مَفرًّا منْ النزُول إلىَ الأرْض لعلَّه يَجد مَا يقتَاتُ بِـهِ لِيعاود رَحلَته إلى المَتَاهِة التى لاَ يعلمُ مَدَاهَا.

نَزلَ الغُرَابُ وَهُوَ مُنْهكُ القُوى تتلاَحَقُ أنفَاسُه فِـى ضِيـق، وأخـذ ينبـشُ فِـى الأرْض باحثًا عمًّا يصلُح غِذاء لَه فلَم يجِدْ، عاود الطـيَران مَـرَّة أخـرَى بصُعُوبـةٍ حتى بلَغ به التَّعب والإرْهاق مبلَغـه، وأحَـسَّ أنَّـه لم يَعـدْ يسْـتطيعُ أن يُحَـرِّك جناحَيْه، وكانَ لابُدَّ مِن الهبُوطِ فورًا قبلَ أنْ يسْقُطَ رغما عنْـهُ مِـن ارتِفَـاعٍ كَبـيرٍ فَيهْلَكُ.

هَبطَ الغُرابُ ناشرًا جِناحَيْه بـلاَ حَركَـةٍ لِيـنزِلَ تَدريجيًّـا بشـكْل اضْطِـرَاريٍّ، ولَكِنَّه لَمْ يَسْتَطِع التَّحكم فِى تَوَازُنِه جَيدًا، فَارتَطَمَ لِحُسـن حَظِّـه بـأرْض مَليئَـةٍ بالمزرُوعَاتِ، وَلكِنَّه أحَسَّ بـأنَّ جَنَاحَـهُ قَـد كُسِـرَ وانتابتـه آلاَمٌ شَـدِيدةٌ.. آهٍ يَـا لَلمصيبَةِ.. ماذَا يفعَل؟ إنَّ الجُوعَ يَكَادُ يَفْتِكُ بِـهِ وَهُـو لاَ يسْـتَطِيعُ الحرَكَـةَ، وَلاَ حِيلَةَ وَلاَ مَلْجَأ لَهُ إلاَّ إلَى اللَّهِ يدعُوهُ أنَ يَغفِرَ لَهُ خَطَايَاهُ.

أخذَ الغُرابُ يبْحَثُ حَوْلَهُ طَويلاً بِقدْر مَا طَـالت أظَـافِرهُ دُون جَـدْوَى، حتَّـى عزَّت عليْهِ نفْسُه ورَقَد علَى الأرْض مستَسْلِمًا مكدُود القُوى، حزِينًا بَائِسًا لاَ يقدِرُ علَىَ الحرَكَةِ أو الطَّيَران وَظَل عَلىَ هَذهِ الحَال فترَةً طَويلةً حتَّى قَـرُب اللَّيْـلُ أنْ يُرخِي أسْتَارَه علَى المكَان، وَفَجْأةً.. أحَـسَّ بَـأنَّ هُنـاكَ شَـيئًا مَـا يَقْـتربُ منـه، وحدَّثَتْهُ نفسُهُ قَائِلةً:

آهِ يَاربىِّ ماذَا لَوْ كانَ هذَا ذِئبًا أو ثَعْلَبًا أو حَيوانًا متوحِّشًا يَجدنى صيْدًا ثمِينًا لَهُ.

حَاوَل الغُرَابُ النُّهوضَ عَلَى أرْجُلِهِ مُحَاولاً الطَّيرَانَ، والإفْلاَتَ بِجلْدِهِ من هذهِ المأسَاةِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، حَاوَلَ القفْزَ أو الجرْىَ فَلَمْ يُفْلِحْ كَذِلـكَ، وأحَـسَّ أنَّ مَصِيرَهَ ونِهَايَتَهُ المحتُومَة قَدْ دَنتْ جَزَاءَ مَا بدَر مِنْهُ مِنْ سَيِّئاتٍ.. وسَلَّم أمْرَه للَّه يائِسًا.. اقْترَب الآتِى نَحْوه رُويْدًا.. رُوَيدًا.. أكثَرَ فَأكثَرَ، هَاهُو قَد أصْبَحَ أمَامَهُ تماًما ينْظُر إليْه مُتَعَجِّبًا لِوُجُودِه فِى هَذا المكَان بالذَّات، وعَلى هَذَا النَّحْوِ.. يَاه.. إنَّه كلْـبٌ

كَبِيرُ الحجم ينظر إليْهِ مُتَفَحِّصًا بدقَّةٍ.. كَتَمَ الغُرَابُ أنْفَاسَهُ وَأغمَضَ عينَيْهِ واسْتَسْلم لِمَصِيره، وَتذكر علَى الفوْر ما كَان يَفعله بالطُّيُور الضَّعِيفَةِ أو الجَرِيحةِ وَالصَّغيرة، وقَالَ لِنفْسهِ يُحَاسِبُهَا:

هَذا يَوْمُ الحسابِ.. وكَمَا تَدينُ تُدَانُ، واللَّه يُمهلُ ولاَ يُهمِلُ

مرَّت لحْظَةٌ مِن الصَّمْتِ حَاول فيهَا أنْ يتَماسَك أوْ أنْ يتوَسَّل إلىَ الكلبِ وَيسْتَدِرَّ عَطْفَهُ لِيترفَّق بِهِ، وَلكِنَّ صَوْتَه خَرَجَ ضَعِيفًا متحشْرجًا كأنَّه أنَّات وزَفَراتٌ مُتَقطعِّة لاَ تَصِلُ إلىَ سامِعِهِ، وَرَاح بعْدَها فِي غَيبُوبَةٍ..

لَم يدر الغُرابُ كَم مَرَّ عَلَيْه من الوقت وهُو علَى هذهِ الحال، ولَكِنَّه تنَبَّه للحْظَةِ لِيجَدَ نفْسَهُ محمُولاً بِشكْلِ مَا، ومَا إن فتَح عيْنَيْهِ حتَّى أصِيبَ بالذُّعْر، إنَّ الكلبَ يَحْمِلُه بفَمِه وبيْنَ أنيَابه وَيسِير بهِ فِي اتجَاه ما.. ولكن إلىَ أيْنَ..؟ لاَ يدْرى.. هل سَيَفْتَرسُهُ..؟ هل سَيَأخُذُهُ طَعامًا لِصغَاره؟.. اللَّه أعلَم!!، وَلكِنَّه فكَّر لبرْهَةٍ، مهلاً مهلاً.. صَحِيحٌ أنَّه محمُولٌ بَيْن فَكَّي الكلْبِ الكَبير، وَلكِنَّه لاَ يُحِسّ بأيِّ ألمٍ.. إنَّ الكلبَ يحْمِلهُ بحُنُو شَدِيد.. يَا سُبحَانَ اللَّه تَفَاءلَ الغَرابُ كثيرًا ثم قال لِنفْسِه:

رَبُّنا يُكَمِلهَا بالسَّتْر، ويْبعَث لِي بأوْلاَدِ الحَلاَل، كَما يقُول البَشَر

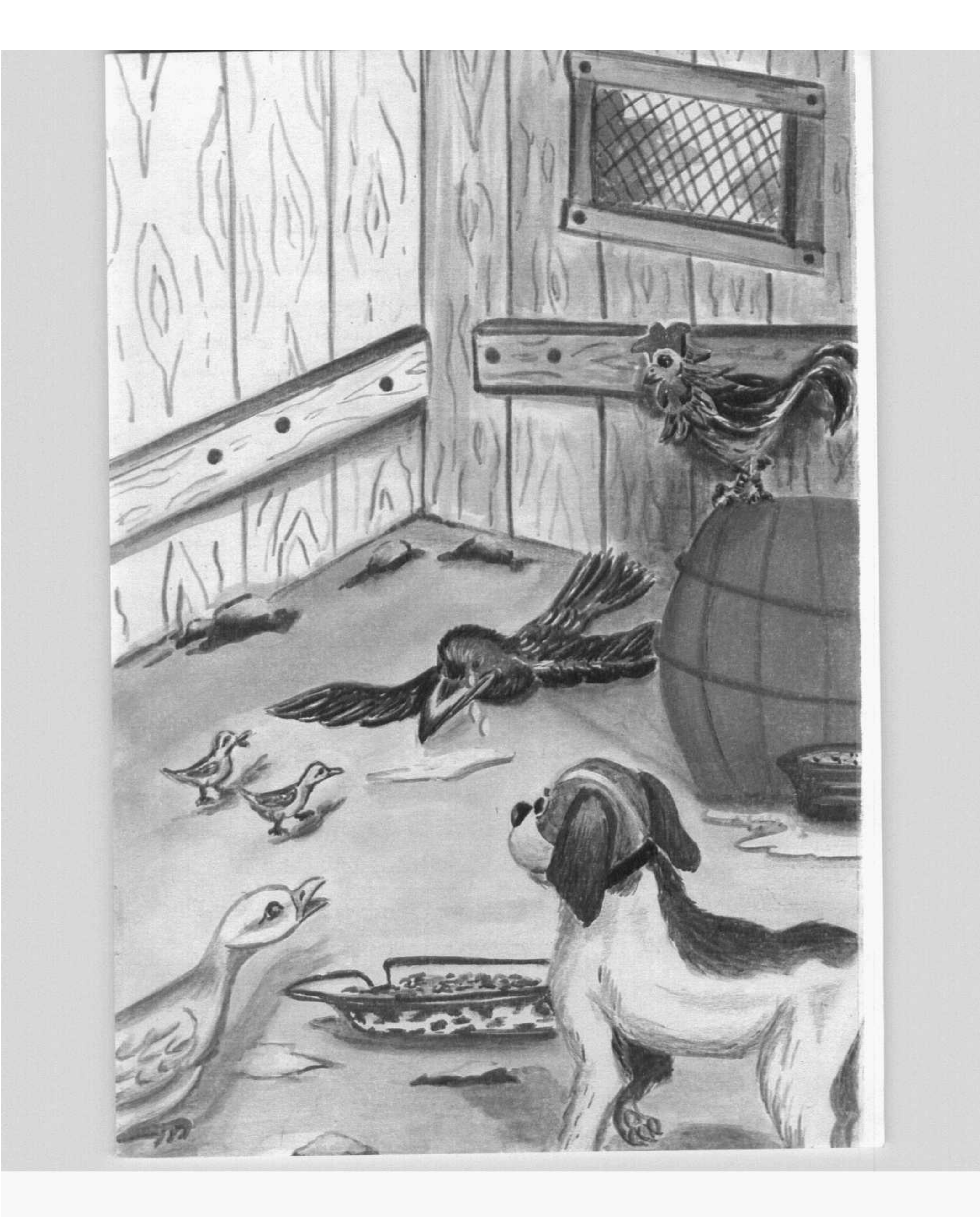
سَارَ الكلبُ إلىَ مسَافةٍ غَيْر بَعيدَةٍ حاملاً الغرابَ المسْتسلم بينَ فكَّيْهِ متجهًا نحْوَ منْزل قَريبٍ، يَبْدُو أنَّه مِنَ الكِلاَبِ المدرَّبةِ علىَ الصَّيْدِ، وَرُبما يَحْمِله ليُسلِّمَه لِسَيِّدِهِ.. رُبَّمَا، وَلَكِن.. لَقَد غيّر الكلب اتجَاهَه فَجْأةً، وسَارَ نحْو حَظِيرَةِ الطُّيُور والدَّواجَن الخاصَّة بِالمزْرَعَةِ.. خَفَق قلبُ الغرَابِ بشِدَّة وانْتَابتْهُ الهوَاجِسُ مرَّة أخْرَى، وخَافَ أنْ يَحْمِله الكلبُ إلىَ مَكَان غير آمِن، ولكنَّ الكلب دلَف إلى الحظيَرة واتَّجه مُباشرَةً إلىَ المَكَان المُخَصَّص لِلدَّواجِن لِيَضَعَه بيْن الدَّجَاجِ وَالأوزِّ وَالبَطِّ وَالدِّيكَةِ، دُون أنْ يُلقِى بالاً لِنداء أحَدِ العمَّال عليْه:

مِشْمِش.. يَا مِشْمِش.. إلىَ أيْنَ تَذْهَبُ؟ ماذَا معَك؟، هيَّا تَعَـالَ إلى هُنَـا حَـالاً، فَلْيسَ مَسْمُوحٌ لَكَ بالتَّواجُدِ بيْنَ الدَّواجِن.. اخْرُج وَدَعْها فِى حَالِها ولاَ تُزعِجْهَا

لَمْ يَأبَـهِ بِـه الكَلْـب وسَـارَ بـالغُرَابِ إلىَ زَاوِيَـة تَضُـمُّ مسَـاقى المِيـاه والأغذِيَـة المخَصصَةِ للطيُور، ووَضَع الغرابَ بينَهَا علىَ الأرْض برفْق فِى مكـان مُـنزَوٍ بيْـنَ الأوانِى حتَّى لا يَرَاهُ أحَدٌ، ثُمَّ نَظَر إليْهِ متأثرًا بحَالَتَهِ التـى يُرثـى لَـهَا، وتَركـه داعيًا لهُ بالصّحةِ والعَافِيةِ.

فِى هذهِ اللحْظَةِ.. وهَذِه اللحظَةِ بـالذَّات، أحـسَّ الغُـرابُ بـأن حيَاتـه كلّـها لا تساوى هذه النَّظَرات والمشَاعِرِ الرَّقِيقَةِ، وأنَّ مَا فعله به الكلْبُ الوَفِىّ الصَّدِيقُ، يَعجزُ اللِسَانُ والْبيَانُ عَنْ وَصْفِه، وأنَّه بكُل أسـفٍ، لَـم يكُـنْ يعلَـمُ بـأنَّ هنَـاك مخلُوقاتٍ طيبةٍ متُسَامحة ودُودَةٍ إلىَ هذَا الحَـدِّ، والتَفـت إلىَ الكلْـبِ ونظَـر إلْيـهِ بخَجِل نظرةً شَاكِرةً لاَ يُمكِنُ أنْ تَتَحَول مَعَانِيها إلىَ كلماتٍ، وشَعرَ بكل الخِـزْى لأنهُ كَاَنَ خَسِيسًا ودنيئًا معَ الآخَرينَ إلى أبْعَدِ درجَةٍ، ومرَّت أمَامَ عيْنَيْـهِ أفعالـهُ ومَا اقْتَرَفْته جَوارِحُه ومخَالِبُه مِنْ سَيئاتٍ لاَ حَصْر لَهَا، ولَمْ يسْـتَطِعْ أنْ يحبِـسَ أنَّاتِه ودُمَوعَه الَّتِى انْهَمَرت بشِدَّة.. إنهَا دمُوع النَّدمِ الصَّـادِق، ولَـمْ يَجِـدْ إلاَّ أنْ يُتمْتِم بصَوْتِهِ الضَّعِيفِ المَكْدُودِ بكلِمَات الشُّكرِ والحمْد للَّه.

ومَا أنْ بارَحَ الكلْبُ المكَانَ مطمئنًّا عليْـهِ، وأنَّـه سـيَكُونُ فِـى أمَـان وسَيَسْـتَرد عَافِيتَهُ، حَتى هُرِعَتِ الدِّيكَةُ والدَّجَاجَاتُ والأوز وَالْبَطُّ وَصِغَارهم للتَّرحِيبِ بِـهِ، هَذِه تُشجِّعهُ وهَذِه تُوَاسِيه وَتُطمئنُـه أنَّـه سـيَكُون بَيْنَـهُم فِـى أمـن وأمَـان، هَـذِه تُؤانسُهُ وتُرفِّه عنْهُ، وَأسرَعَتِ تِلْك تَلْتَقِط بمنقَارهَا بَعْضًا مِنَ الأكْل الشَّهِىِّ المُغَذِّى الَّذِى أعدَّتْهُ صَاحِبَة الدَّار وتَضَعُه أمَامَـهُ، وتَجـرَّأت أوزَّة كَبِـيرَة وأخـذَت تلْتقِـطُ الغِذَاءَ بمنقارهَا لِتلقِى به فِى جوفِهِ.. يَا لَسَعَادَته، إن مشَـاعِره الآنَ لاَ تُوصَـفُ، هَكَذا تكوُنُ المَودَّة والتعَاطُفُ والتراحُم بين مخْلوقَاتِ اللَّه كافَّةً، وهو الَّذِى عـاشَ مكرُوهًا منْبُوذًا بيْنَ بَقِيةِ أقْرَانِه وأقربائِه مِنَ الطُيُور.



ولَمْ تَمر سَاعَات حتَّى تَعافَى الغُراب واسْتَردَّ بعْض قُوَّتِه، الحمْدُ للَّه أكلَ وَشَربَ حتَّى اكْتَفَى، ثمَّ انْزَوَى خلْفَ أحَدِ الأوَانِى الكَبِيرَة بجوار الحَائِطِ، لِينَامَ مسْتَرِيحاً هَادِئ البَالِ حتَّى أشْرَقَتْ شَمْسُ اليَوْمِ التَّالِى وجَاء يوْمٌ جَدِيدٌ، ومرَّت أيَّامٌ.. وأيَّامُ أخْرى، تَحْمِلُ لَهُ الأمَلَ والدِّفْءَ والحيَاةَ السعيدة بيْن أصْدِقائِه مِنَ الطُّيُور والحَيَوَانَاتِ الطيِّبَةِ، تَبَادلَوُا فِيها جَمِيعًا العِنَاية به حتَّى بَدأتْ جرُوحُه وكُسُوره تَلْتَئِم، وبَدأ يَسِير ويخطُو بينَهم كأنَّه واحِدٌ منهُم، تَتقَافَز وَتَتصَايَح حوْلَه أفْرَاخُهُم وصِغَارُهم دُونَ وجَلٍ أو خَوْفٍ، والْكَلْبُ يَزُورُه لِيطْمِئن عَلَيْهِ مِنْ حِينٍ إلىَ حِينٍ وَيَرْقبه بسُرُور ورضاً.

وذَاتَ صبَاحٍ جاءَتْ صَاحِبةُ البيْتِ كعَادَتِها لتُعِد للدَّواجِن لَوازِمَها مِنَ الغِذَاءِ والمَاءِ وخِلافِه وبيْنما كانَتْ تُنَظِّفُ أركَانَ المَكَان.. فَزعتْ عِندَما وجَدَت هُنَاك غرابًا جالسًا مستريحًا بيْن الكتَاكِيتِ والأفْراخِ الصَّغِيرَة وَهِى تلهُو حَوْلَهُ، ارْتَاعَتِ السيدَةُ وَهِى تَحْسَبُ أنَّ الغُرَابَ يُضْمِر لَهُم سُوءًا، فقَد سَبقته شُهْرَته الذَّائِعة فِى اختطِافِ صِغَار الدَّواجِن، وَأسْرَعَتِ تَتنَاوَل أقرَبَ عصًا غَلِيظَة وَهِى تَصِيح، واتَّجهَتْ نَاحِيته لتضَربه وتُحطِّم رأسَه، وَلكن.. يَا لَلْعَجَبِ.. إنَّ الصِّغَار يَلْتفُّونَ حوْلَه وَيتقَافَزُونَ فوْقَ ظَهْرِهِ وَرأسِه دُون خَوفٍ، كَأنَّما جَعَلوُا مِن أنْفُسِهم ساترًا لحِمايَتِه، بيْنَما أسْرَعَتِ بَقِيَّةُ الدَّواجِنِ صَائِحَة تَذُودُ عَنْهُ.

وَقَفتِ المَرْأةُ منْبهِرَة تُنَادِى عَلى زَوْجِهَا وَأوْلاَدِهَا لرُؤْيَةِ هذَا المشْهَدِ الْغَريبِ حقًّا، وأحسَّ الْجَمِيعُ بمدَى التَّآلُفِ والتَّكَاتُفِ بيْن طُيُورهم وَهَذَا الْغُرَابُ الْغَرِيبُ التَّائِه، وأسْرَعَ الكَلْبُ بدوْره يَتمَسَّح بهَا كَأنما يُهدِّئ مِنْ روعِهَا وحيْرَتِهَا، وذهب إلىَ حَيْثُ الغُرَابُ راقدًا منزويًا مَذعورًا، ثُم حَمَلَهُ بين فكيّه برقةٍ وهُو مُسْتَسْلِم لَهُ تمَامًا، ووضَعَهُ بين أرْجُل السَّيدة الَّتِى لَمْ تَتَمالك مَشَاعِرَهَا ودُمُوعهَا فِى هذه اللحظة، ثم مَالَتْ نَحْو الغُرَابِ وأمسَكَت بِهِ بحنُوٍّ، وهُو ينْظُر لَهَا بعَيْنٍ

حَزِينَةٍ خَجولَةٍ مُستَسلِمَةٍ، فَلم تَسْتَطِع حِيالَ ذَلِك إلا أنْ تأخُذه وَتَضَعه فِي مكَانِه حَيثُ وَجدته بهدُوءٍ وَاطْمِئنَان.

بعدَ عِدة أسَابيعَ، شُفِيَ الغُرَابُ تمَامًا وبَدأ يُعاوِدُ الطَّيَرَان حَوْلَ الْمَكَان، ثُمَّ يرجعُ لِمدَاعَبةِ الصِّغَار والْكِبَار مِنَ الطُّيور، والسَّيْر مُتَمهلاً متأنيًا متباهيًا بين أصْدِقائهِ وَأهلِهِ الجُدُد، يُساعِدُهُم ويَهُبُّ لِنجدِتهم مِنْ أىِّ مُعْتَد، بل جَعل مِنْ نفْسِه حَارسًا خاصًّا مقيمًا لَهُم، مِمَّا جَعَل أصْحَاب البَيْتِ يُعِدُّونَ لَهْ مكانًا وعشًّا فِى أحد أبْرَاجِ الحَمام العالِيَةِ المُطِلَّة علَى المَكَان، لِيعيش بَيْنَهُم سَعِيدًا مُرتَاحَ البَال، وفَاضَتْ أيامُه بالبهْجَةِ والحُبِّ والوِئَامِ والسَّلاَم، وتَنَاقَلتِ الطيُورُ بِأنوَاعِهَا تِلْك الحِكَاية السَّارَّة عِن الغُرَابِ الَّذى وَجَدَ نَفْسَهُ وعَاد مِنْ متَاهَتِه أخيرًا.

وَلكن، ذاتَ صَباحٍ قَام الغرَابُ بجوْلَتهِ التَّفقدية الرُّوتِينيةِ اليوْمِية ليطْمَئِنَّ عَلَى المَكَانِ والْجِوَارِ، ولَكِنَّه فزِعَ عنْدمَا لَمَحَ بعْضَ الغِربَان الغُرباءِ يحُومُون مِنْ بَعِيدٍ.. سَتْرِكَ يَا رَبِّ.. لقَد حلَّتِ المَتاعِبُ ثانِيَةً، وَلكِن الغِربَانَ لَمْ يُضَيعُوا الوَقْتَ، وأرسَلوُا واحدًا مِنهُم مُتَسَللاً يَدْعُونَه لِلقَائِهم.. رفَضَ الغُرَابُ فِى البِدَاية، ثُم قَبِلَ أنْ يلقَاهُم بعد إلحَاحِهِم علَى مَضَضٍ وهُو لاَ ينْتَظِرُ مِنْهُم خيرًا، بلْ قَال فِى نفْسِهِ:

«يَجِبُ أنْ أرَى ماذَا يُرِيدُونَ حتَّى أسْتَطِيعَ أنْ أتَّقِى شَرَّهم وَأُفسِدَ خُطَطَهُمْ»

وطَار إليهم حيْثُ ينزَوُونَ عَلَى شجَرةٍ بَعيدَةٍ وهُو مُتَوَجِّسٌ مِنْهُم خِيفَةً ومُسْتَعِد لِكُلِّ الاحْتِمَالاَتِ، وَحينَ وصَل إليْهِم ثارُوا فِى وَجْهه بِشدَّةٍ واتَّهمُوه بِالْخِيانَةِ، وهَدَّدُوهُ إن لَم يرْجِع إلىَ عَشِيرَتهم وَيعِيش بينَهُم كَمَا كانَ ويحذُوا حَذوَهُمْ، فَسيَضطرُّونَ إلىَ إلحَاقِ الأذىَ بِهِ نَتيجَة لِكفْره بشَرائِعِهِمْ ونَوامِيسِهم وَعَدَم اتِّبَاعِ تَعَالِيم حُكَمَائِهم.

عبثًا حَاوَلَ غرَابنا أنْ يشرْحَ لَهُم مَدَى السَّعَادةِ والْهنَاءِ الَّذِى يتَمَتَّعُ بِـهِ، وأنَّـه وجَد الجنَّة الموْعُودَة الَّتِى لمْ يسْتَطِيعُوا أنْ يُحَقِّقُوهَا لَهُ أوْ لِغَيْره مِن المخدوعِـينَ، وأنَّهُ الآن بيْنَ طائِفةٍ منَ الطيور والحيَوانَـاتِ والْبَشر، يَجمَعُـهم الوئَـامُ والتَّـآلفُ والتَّكَاتفُ الاجْتِمَاعِى والتَّعَايُش السِّلْمِى، وَيسُودُهم مَبْدأ وَاحِدُ يقُومُ عَلَـى حُـبِّ الخَيْر لِلجَمِيع، وليسَ هُنَاكَ فَرَقٌ بيْن الكَبِير أو الصَّغِير، أو القَوى والضَّعِيـفِ، ولاَ بيْنَ الحَاكِمِ والمَحْكُوم، فَالكُلُّ سوَاسِيَة فِى الحقُوق والواجِبَاتِ، وَإنمَا أكرَمُهُم عِنْد اللَّهِ أتقَاهُمْ، وَلوْلاَ أنَّه خُلِقَ هَكَذا غُرَابًا، لتَبرَّأ مِـنْ نَفْسِـه وَصُورَتِـه حتَّـى لاَ يَكُون علَى شَاكِلتهم وَلكِنَّه لِلأسَفِ لَنْ يَسْتَطِيعَ، إنَّما سَيُسَلِّم أمْـرَهُ للَّـه ويُحَـاولُ أنْ يَعِيشَ نَظِيفًا طيِبًا طاهرًا منْ كل الشُّرور، ولاَ يعمَل إلاَّ مَا فِيهِ صَلاَحُه وصَلاَح الآخَرين.

غادَر الغُرابُ المَكَانَ بعْد أنْ هَدَّدهُم باسْتِدعَاءِ أهْلِـهِ وعَشِيرتهِ الجَـدد وجميـع الطُّيُور ليَطْردَهُم أوْ يفتِكُوا بهم، وطلَب مِنهُمْ مغَادَرَة المنْطقَـةِ فـورًا وعـدَم العـودةِ إليهَا مرَّةً أخرى مَهْمَا كَانَتِ الأسْبَابُ، وَأنَّه يُفَضِّل أنْ لاَ يَرى وُجُوهَـهُم العكـرة ثانيةً، ويتَمنَّى أن يَعيشَ بيْن أهلِه هُنَا فِى سَلاَمٍ وأمَانٍ إلىَ مَا شَاء الرَّحْمَنُ.

□□□

أنا الحصان الأبيض

أعِزائى.. هَذِه حِكَايَتى، أقُصها عَلَيْكُم كَماَ حَدثَتْ تَمَامًا لَعلَّكُمْ تَروْنَ فِيهَا مَا ينفَعكُمْ: أنَا حِصَان عَرَبى أصِيلٌ، أسْمُونِى – شِهَاب – لأن لَوْنِى أبْيَضُ نَاصِعُ البيَاض.. مُنْذُ مَوْلِدِى أصْبحْتُ الفرَسَ المُدَلَّل بيْنَ أقرانِى مِن صِغَار الخيْل فِى الإسْطَبلَ الكَبِير الَّذِى يمْتَلِكُه أحَدُ الأثرِيَاء، ويقَعُ علىَ أحَدِ مشَارفِ القَاهِرَةِ الصَّحْرَاويَّةِ.

ترَبَّيْتُ هُنَا معزَّزًا مُكرَّمًا يَهْتَمون جِدًّا بِخدْمتِى وشُئُونى الصِّحِّيةِ، لِذَا خصَّصُوا لِى سَائسًا مُعَينًا لِرعَايَتى، وَسرْعَانَ مَا ترَعْرعْتُ وأصْبَحتُ فَرَسًا شابًّا يانعًا يتَهافَتُ الأثرِيَاءُ وَمُحِبُّو الخيُول علىَ شِرَائِى، وَلكِنَّ صَاحِبِى الطيِّب يُحِبنِى بشدَّةٍ، ويُصِرُ علَى الاحْتفَاظِ والتَّمسكِ بى لنَفْسِه وأوْلادِهِ رَغْمَ مَا عُرِض عليْه مِنْ مبَالِغَ مَالِيَّة كَبيرة جِدًّا، فِى حِين بيع العدِيدِ مِنْ أقرانِى للرُّكُوب أو لِجَرِّ العرَبَاتِ والحنَاطِير أو كَخُيول للسِّبَاق.. كُلٌّ حَسَبَ حَالَتِه وكفَاءَتِه البَدَنِيةِ وحَظِّه منَ الحيَاةِ، أمَّا أنَا فأصْبَحْتُ الحِصَانَ المُخَصَّص لتِسْلِية ونُزْهَةِ الأطْفَال أوْلاَدِ صَاحِبى فَقَط، لِذَا لمْ يحَاولُوا تَدْريبِى أوْ إعْدَادِى بدنيًّا كَحِصَان يَافِع يُمْكِن أنْ أصْبِح شيئًا أكثرَ نفعًا، وهُو مَا أسَاءَنِى كثيرًا وسبَّب لِى الضِّيقَ والضَّجَر، فَأنا بطبعِى طمُوحٌ مُتطَلعٌ إلى ما هُو أفضَلُ دَائمًا.

هَكذَا عِشْتُ حَياةً مترفةً ولَكِنَّهَا مُمِلَّة بَاهِتَةُ بَارِدَة، بالطَّبْع كَانَ لاَبدَّ مِنْ أنْ أكُونَ هَادِئًا مُتمهلاً بَطِيءَ الحركة حِرصًا علَى سلاَمَةِ الأطْفَال، لِذا أطْلَقُوا علىَّ الحِصَانَ الكَسُولَ الطِّيبَ الهَادِئَ..!!! ولَكِنى واللّه لسْتُ كَذَلك.. فَفِى دَاخِلى قَلبٌ يشْتَعِلُ نشَاطًا وحَيَوِيَّةً وَقُوَّة، أهْفُو إلىَ الحرِّية والانْطِلاقَ وإثباتِ الذَّات، ولَوْ تركُونِى لَظَلَلتُ أجْرِى وأقْفِز وأصْهل بأعْلَى صَوْتِى، لاَ أتوقَّفُ حتَّى يعرِفَ

الجَميعُ أنّى هُنا مُقَيد دُونَ تدْريب أو تَعْلِيم أوْ تَهْذِيبٍ.. سَجِينٌ فِى أحد حظَائِر الإسْطَبل الكَبير، أنتظِرُ سَائِسى كُلَّ صبَاحٍ لِيَأخذنى لِمُهمتى الروتِينِيَّةِ الملة، وَاضِعًا الأطفَالَ علىَ السَّرج الفَاخِرِ المُخَصَّصِ لِى، ثم يَجُرنِى جرًّا وهُو مُمْسِكٌ باللجَام مُتَمَشيًا بهم خِلاَل مَمراتِ وطُرقَاتِ الحَدِيقَةِ المُلْحَقَةِ بالإسْطَبل، وبعد فترةٍ ليْسَتْ طَويلةً.. يُعِيدُنِى ثَانِيةً إلىَ سِجْنِى وقفَصِى الذَّهَبِى الَّذِى كَرِهتُه وَضِقتُ به كَثيرًا، محْرُومًا مما تتمتَّعُ به الخيُول الأخرَى، لأعُود وحيدًا يائسًا إلى اليوْمِ التَّالى وهَكَذا..

ياه.. لَكَمْ تَمنَّيتُ أنْ أكُون حصانًا بريًّا، أرتَعُ وأمرَحُ فِى أرْض اللَّه الوَاسِعةِ بلاَ قُيودٍ أقُومُ علَى رعايةِ شُئُونى وحِمَايةِ نفْسِى، ولَكم تَمنّيتُ أنْ تكُونَ لِى حيَاتِى الخاصَّةِ ومغَامَرَاتِى، أرْجُو ألاَّ تعتبرُونِى مجنونًا أو مخبولاً.. فَقد عَرف التاريخُ خُيولاً عديدةً كانتْ عاملاً مُسَاعدًا فِى تغيير بعض أحداثِ التَّاريخ، وَلعبتْ دورًا هامًّا فِى حيَاة الأفْرادِ، بَل الأمَم والشُّعُوب!!.

هكَذا بَدأتْ حِكَايتِى وتَجمَّعَت خيُوط أحدَاثِها، لاَ سيَّما عِندمَا فكَّرْتُ كَثِيرًا فِى واقع حيَاتِى الرَّتيبةِ، وهفَتْ نفْسِى للبحْثِ عَنْ وسِيلَةٍ لتغيير مَجْرَاهَا، وكَانَ لابُدَّ منْ مُحَاولَةِ الهُرُوبِ مِن هَذا المعْتَقل إلى أرْض اللَّه الوَاسِعَة الرَّحْبةِ، أرتُع فِى مَزارعِها وَوديَانِها وصَحْرَائها كمَا أشَاءُ، بلْ تمَنَّيتُ مَا هُو أبعد منْ ذَلِك.. وحَلَمْتُ بالعودَةِ إلى المَاضِى البَعِيد أو القَرِيبِ، عندمَا كَانتْ الخيولُ تُمثل شيئًا هامًّا وضروريًّا فِى الحيَاةِ اليومية للبشَر.

ذَهبتْ أحْلاَمى بعيدًا فِى اللاَّمعقُول.. ماذا لو رَجع بى الزَّمنُ وعَاصرْتُ الْفترَةَ الَّتِى عَاشَ فِيهَا أجْدَادِى مِن الخُيُول، وكَانوُا حِينذَاك يُمثِّلونُ الوَسِيلة الأولَى للانتقَال والجَرِّ والحمل، وَكَان الفرسَانُ مِن رَاكبى الخيُول هُم القوّاتُ الأسَاسِية فِى الجيُوش، وكَانت تُنتَقَى وتُخصَّصُ أجْمل وأقْوَى الخَيُول للقَادَةِ والأغْنِيَاءِ

والشَّخصيَّاتِ الهَامَّة، كمَا كان يَتِم تَدريبُـهَا عَلـىَ فنُـون الفُرُوسِـيَّة ومختلَـفِ الألعَـابِ والمـهَارَاتِ، كالتسَـابُق والقفْـز واجْتيَـاز الحوَاجِـز والرِّيَاضَـات التَّرفِيهيَّة..الخ ، ويَتبَارى النَّاسُ علَى اقتِنَاء أغلاَها وأكثرهَا جَمـالاً، تمَامـا كمَـا يتهَافتون حَاليًّا علىَ شِراءِ السَّيارات الحدِيَثة الفَارِهَةِ، وسُبحَان الخَـالِق العظِيـم حِينَ قَال فِى كتَابه الكَريم:

﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً﴾.. وقالَ سبْحَانه وتَعالىَ كذلك:

﴿وَأعِدُّوا لهُم مَّا استطعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِـن رِبَـاطِ الخيـل، تُرْهِبُـونَ بِـهِ عَـدوَّ اللَّـهِ وَعَدوَّكُم﴾

صدَق اللَّه العَظِيم

فَكرتُ فِى أقرانِى مِن الخُيُول الشَّهيرةِ فى التَّـاريخ، الخيُـولُ الَّتِـى تَحدَّثَـتْ عنهَا الأسَاطيرُ والحِكَايَاتُ، وَذكَرتهُم المَراجِـعُ والكُتُـبِ وصُنِعـتْ لَـها التَّمـاثِيلُ وخَلَّدتْهُم الصُّوَرُ والمنْحُوتَاتُ، كمَا سُمِّيتْ بأسمائِهم المُـدُن والأمَـاكِن والشَّـوارعُ.. الخ .

تَمامًا .. كَما خَلَّدُوا الأبطَـال مِـنَ البشَـر فِـى القصَـص والمُغَـامرَاتِ التاريخيـةِ الحَقيقية والخيَالية علَى السَّواء، ماذَا لوْ كنْتُ أنَا:

ماذَا لوْ كنْتُ الحصَان المُفَضَّل للإسْكَندر الأكبَر – بُوتْسِيفَالُوس – الَّذِى حارَبَ معَه كُل غزَواتِه وانتِصَارَاتِه، وأطْلِقَ اسمُه عَلى إحدَى المُدُن الفَارسيَّة القَدِيمَةِ..؟

مَاذا لَوْ كنْتُ – رَاكُوش – حِصَان المِلك/ رُسْتم شَـاه الفارسِـى، الـذى اعْتـبَره التَّاريخُ أعْظَمَ حِصَانٍ مُحَاربٍ فِى التَّاريخ، وخلَّدُوا اسْمَه فِى كتَاب المُلُوك (الشَّاهْ نَامَهْ)..؟

مَاذا لوْ كنتُ – مَارنْجُو – حِصَان الإمبَراطُور والقَائِد الفِرنْسِى الشَّهير/ نَابلْيُون بونَابَارت المُفَضَّل، الَّذِى حَارَبَ به وَمَعهُ مَعْرَكَة – وُوتْرلوُ الشَّهيرَة. ؟

مَاذا لوْ كنْتُ – شِيْنج شُو – حِصَان الإمبَراطُور الصِّينِى/ تَاىْ تُسُونْج المفضَّل، الَّذى صنَع لَهُ تمثالاً وُضِعَ علَى قبْره حيثُ تُوفى عَام ٦٣٧م، وكُتبتْ فِيه الأشْعَار وَالْملاَحِم الَّتى خلَّدتْ بطُولاَتِه الحَرْبيَّة..؟

وَمن بَابِ التفكُّهِ والطرَافَةِ، ماذا لو كنْتُ – رُوزينَانت – حِصَان الفارس السَّاذَج الشَّهير مُحارب طوَاحين الهوَاء/ دُون كِيشُوت – رغْم أنَّه كَانَ حصانًا قبيحًا هزيلاً ولكِنَّه أصْبَحَ حِصانًا شهيرًا..؟

مَاذا لو كنْتُ حِصَان الْملكِ العَادِل/ صَلاَح الِّدين الأيُّوبى الذى اشْتَركَ معَهُ فِى تَخْلِيص وتَحْرير بيْتِ المقْدِس مِن أيْدَى الصَّليبيينَ وتوحِيدِ الأمَّة العربيَّة، وجمع كلمَةِ المسْلِمينَ والَمسِيحيين وإصرَارهم علىَ أنَّ القدْسَ عَربيَّةٌ ومَدِينةُ كُلِّ الأدْيَان علَى سَوَاء..؟

فِى صبَاحِ اليوْمِ التَّالِى، جاءَ العُمَّال كَالعَادَةِ لِلقيَام بالإجْرَاءاتِ الروتينية اليوميَّةِ، مِثْل نظَافتِى الشخْصِيَّة ونظَافةِ المكَان، وإطعَامِى وإعْدَادِى للنُّزهَةِ اليوميَّة المُمِلَّة الَّتِى أصْبحَتْ بالنِّسبَةِ لِى أكثرَ سخَفًا، لاَسيَّما حيَن بَدَءُوا فِى تدريبِ الأطفَال الصِّغَار علَى امتطَائِي والدَّوران بِهم لِمُدَّة طويلة فِى دَائِرَة مُتَّسِعَة، يَقِف فِى مرْكَزِها السَّائِسُ مُمْسِكًا بِلجَام طَويلٍ ينتَهى بَفمِى، وَظلْلتُ هكَذا أدُورُ.. وأدُورُ.. وأدُورُ عَشرَاتِ المرَّات علَى هذَا النَّحو، كأننى مربُوطٌ فِى سَاقِيةٍ حتى نَفد صَبْرى وضاقَتْ رُوحِى، وَفجْأةً.. قَرَّرتُ أنْ أقِف رافضًا التَّحركَ أنفثُ غَضَبى نافرًا، والسَّائِس يَصِيح بى مُتَعجبًا مِنْ توقُّفِى المُفَاجِئ طالبًا مِنى التَّحرّكَ وإكمَال جوْلَتِى، وَفَجْأةً أيْضًا بدَأتُ أتحَرَّكُ بشْىءٍ من العنْفِ والسُّرْعَةِ متَعمدًا.. تَوقَّفْتُ ثَانِيَةً حتَّى يُسْرِع السَّائِس بالتقَاطِ الأطفَال مِن فوْق ظهْرى، لِذلِكَ أسْرعَ الرَّجُل يشُدّ اللِّجَام الطَّويلَ ويُقصِّره بسُرعة، ثمَ خَلَعَهُ عَنِّى حِين أصْبَح بجوَارى وأخذ يُحَاوِل تَهْدِئتِى، ومَا أن انشغلَ بالتِقَاطِ الأطفَال وإبعَادِهِم

عَنِّى، حتَّى انطَلَقتُ كالسَّهْم جَامحاً أجْرى بأقْصَى سُرعَةٍ فِى طرُقَاتِ الاسْـطَبْل مُتجِهًا إلى بَابِ الخرُوجِ الكَبِيرِ للمزرَعةِ، مُتخطيًا وقـافزًا فـوْقَ كـل مَـا يَعُوقُنـى بقوَّة، ومنْ هَوْل مَا رَآه العامِلوُن والمْوْجُودُونَ فِى المكَـان، لم يسْـتطعْ أحـدٌ منِـهم مُجَرَّد اعْتِرَاضِى والوقوُف فِى طَرِيقِى، بلْ وقَفُوا فِى مكَانِهم يضْربُونَ كفًا بكَف، فِى عجب مِنَ الجنـوُن المفَـاجِئ لِلحصَـان الهَـادِئ اللَّطِيـفِ كمَـا عَرفُـوهُ، ودون أسْبَابٍ أو مُقدمَاتٍ!!!.

وَلَم تمْض عدَّة دقَائق حتى وَجدْتُنِى دُون تَفْكِير أنطلِقُ نافرًا إلىَ الخَلاَءِ والمزَارِع المُحِيطَةِ بالمكَان، أخْتَرقها وأندفعُ بلاَ تَوقُّـف ولاَ هَـوادَةٍ إلىَ المنطَقـةِ الصَّحـرَاوِيَّـة المُجَاورَةِ، ولمَّا ابتَعدتُ كثيرًا رُبما لِعدَّة كيلُومترات، حيْثُ لَمْ أعُـدْ أسْـمَعُ سِـوَى صوْتِ أنفَاسِى المتلاَحِقَةِ من شِدَّة التَّعبِ والمْجهُودِ المُضْنِى الَّذِى قُمْتُ به فجْأةً.. أبطأتُ مِن اندفَاعِى تدريجيًا ثم توقَّفْتُ أسْتطلِعُ مَا حوْلى، ثم نَظَرْتُ خلفِى لأرَى إن كَانَ يُلاَحقنى أحدٌ.. يَاه.. لَقدِ ابتعْدتُ كَثيرًا جدًا، ويبـدو أنَّـهم يَئِسُـوا مِـن تَتَبُّعِى فترَكُونِى معتقِدين أننى سـوفَ أعُـودُ لاَ محَالَـة صَـاغرًا عِندمَـا يبلـغُ بـى الجُـوعِ والعَطـشُ مبلَغَـهُ، أو عِندمَـا يرخِـى اللَّيـلُ أسْتَارَهُ علَـى هَـذِه الصَّحـراءِ المُوحِشةِ، وربمَـا تُـهاَجِمُنِى الذِّئـابُ والحيَوانَـاتُ المتَوحِّشَـة الجَائِعـة، وَرُبَّمـا.. وَرُبَّماَ.. وَرُبما..

آه.. كمْ أنَا متعَبٌ جدًّا.. تؤْلمنُى سَاقَاى الَّتِى لَـمْ تتعَـوَّد علَـى هَـذَا المجْـهُودِ المُفَاجِئ، كَمَا أنَّ الشَمْسَ بدأت تُرسِلُ أشِعَّتهَا الحَامِية المْحرقَة وهِـى فِـى وسَـطِ السَّمَاءِ، وتَطلَّعتُ حَوْلِى لَعليِّ أجِد مكانًا أوْ شجَرةً أسْـتَظِلُّ بـهَا.. يـا للّـه.. مَـا هذَا؟.. لاَ شجَر ولاَ بيُوتَ ولاَ جُـدرَانَ، لاَ أرَى سِـوى الكُثْبَـان الرَّمليَّـةِ المُلتَهبَـةِ فَقَط، أخذْتُ أدرُس المكَانَ جيدًا، ودُرتُ أبحثُ عَن الظِّلِّ خَلـفَ أحـدِ الكُثبَـان الرمليَّة أو خلْفَ الكُتَـلِ الصَّخـرِيَّةِ.. الحمْد للَّه.. هُنـا يُمْكِـنُ أنْ أسْتَرِيحَ وَألتَقِط



أنفَاسِى، ومشَيْتُ مُثْقلاً تعبًا مرْهقًا ثم جلسْتُ أفكِّر فِـى حَـالِى، وأسْـتَعْرِضُ مَـا حَدَث وأعِدُّ نفْسِى لِكل الاحْتِمَالاتِ المُتوقعةِ وغَيْرِ المُتَوقعَة.

.. يَاربِّى.. مـاذَا لَوْ ظَللتُ هَكـذا حتَّى يَبْلُغ بى الجُـوعُ والعَطَشُ أشُـدَّه..؟ لا يَبْدُو هُنا أىَّ أمَل فِى العثور علىَ مَا يحفَظُ عَلىَّ حيَـاتِى.. فـلاَ زرعَ ولاَ مَـاءَ.. وماذَا لَوْ هَاجَمَتْنِى الذئابُ الجَائِعَة، صَحِيَحُ أنِّى أسْرعُ مِنـهُم عَـدوًا وأقْـوَى مِـن أيِّهم، ولَكِنىِّ منْهَكُ القُوَى جَائِع وَعطْشَان.. لُطْفَك يَاربِّ.. أنَا علىَ هذَا الحَـال صيْد ثمِينٌ وهَالِك بْينَهم لاَ محَالةَ.

وَلكن سرْعَان مَا أفقْتُ مِنْ أفكَارى المرْعِبة السَّودَاويَّةِ هَذِهِ، وقلْتُ لِنفْسِى:

«لاَ.. لاَ.. مَا كُل هذَا الخوْف وَالْيَأس، عَلىّ أنْ أتشجَّعَ وألاَ أكُونَ جبانًـا إلى هذَا الحَد، هَذا ما صَنَعتُهُ بيدِى ومَا أوقَعْتُ نفْسِى فِيهِ، ولاَبد لِـى مِـن السَّـيطَرَةِ علىَ مشَاعِرِى، وتَحَمُّل نَتِيجة عَمِلِى ومَا أقدْمتُ عليهِ مـنْ عـدَمِ الرضَـا بالنِّعمَـةِ الَّتِـى كُنـتُ فِيـهَا، حَقِيقـةً.. لاَبُـد أنْ أكـوُنَ طمُوحًـا ومتَعطِّشًـا لِتغْيـير مجْـرى حَيَاتِى.. ولكِن ليْس عَلَى هذا النحْو المُهْلِكِ.

آخ.. لقد عزَّت عَلىَّ نفْسِى.. وأخذْت أقَارِن بيْنَ مَا كنْتُ فِيـه ومَـا أنَـا عليْـهِ الآنَ، فعلاً.. لَقد كنْتُ فِى أمَان وراحَـةٍ وَرعَايـةٍ، وكَـان مِـن المُمْكِـن أنْ أحَـاولَ التَّغِيير بَشكْل أو بآخَر، ولَكِن لَيْس بَهذَا الأسْلُوب الخَاطِئ.. إنِّـى أعْـترَف الآن بخَطَئِى. وَلكنْ.. مَا لِهذِهِ الهوَاجِس.. ما حدَث قَدْ حدَثَ فِعْـلاً، ولاَبُـد مِـنْ أنْ أتماَسَكَ وَأكْمِل التَّجرِبَة الَّتِى بدأتُها شِئْتُ أمْ أبْيتُ، ومَـا دُمْـتُ لم أفعَـل شـيئًا يُغْضِبُ اللَّه وَلم ألحِق الضَّرر بأحَدٍ، فَإنه سينَجِّينى إن شَاءَ اللَّه.

مَالِت الشَّمْسُ وهَدَأتْ حَرَارَتُها قَلِيلاَ، فانْتقلْتُ إلى بُقْعَة ظَليلَةٍ أخْرى مُخْتَبئًـا بَيْن صخْرَتيْن عَن العيُون. ولَكِنـىِّ بـدأتُ أحِـسُّ بـالعَطَش الشَّـدِيدِ، يَـا رَبـى.. مَا لِرأسِى تَدُورُ هكَذَا.. بدَأتْ تثْقُل جُفونى.. إننى أتثاءَبُ بَشِدَّة.. تَمَددْتُ قليـلاً

وبَدأ النَّوم يَشُدُّنِى بِقُوَّةٍ، وشَمِلَنِى صمْت وسُكونٌ وهدُوءٌ غَرِيبٌ ولَمْ أعُدْ أحِس بِشَيْءٍ.. وشَيئًا.. فشَيئًا..

لاَ أدرى كَمْ مضَى عَلىّ مِن الوقْتِ، وَلكن فجْأةً.. وجدتِنى واقفًا فِى وَادٍ فَسِيحٍ وَسَطَ تِلاَل علَى مشَارف مَدينَةٍ كبيرة عَامِرَة بهَا منَ الزَّرْعِ والشَّجَرِ الكَثِير، وعلَى مقْرُبةٍ مِنى يُوجَدُ بِئرُ مَاءٍ وجـدَول حوْلَه الكَثِير مِنَ الجُنُودِ والخُيُول يْرتَوونَ ويغْتَسِلوُنَ.. إيه.. ماذَا جَرَى أيْنَ أنَا.. وَفِى أىِّ مكَان وزمَان أكُونُ.. يا سُبحَانَ اللَّه، يبدُو أنَّنِى وَسْط جَيْش عَظِيمٍ مِن جُيُوش العُصورِ الوسْطَى، هَاهم يلْبَسُونَ لِباسَ الحرْبِ، مسْتَعِدُّونَ بالسُّيوُفِ والرِّمَاحِ والدُّرُوعِ والتُّروس، يَا سَلام.. هـذِهِ هىَ قَاذِفاتُ المنْجَنِيق المُحْرِقَة الَّتِى ابتكَرهَا العَرَب كَسِلاَحٍ رَادِعٍ استَخْدمُوه فِى حربهم ضِدَّ الصَّلِيبيِّينَ.

ياه.. يَبدُو أنَّنِى رجْعتُ إلَى القرْنِ الثَّانِى عشَر المِيلادَى، وَوَجَدْتُنِى بسَرجٍ وَلِجَامٍ جَميلٍ، أعتِقدُ أنِّى أصْبحْتُ مُخصَّصًا لأحِد القوَاد العِظَامِ.. يَا لفرْحَتِى وسعَادَتِى الغَامِرَةِ، هذا مَا أشْتَاق إليْهِ وأحب أنْ أكُونَه.. وفجْأة هَروَلَ أحدُ الجُنُود تِجَاهى وأمسَكِ بى قَائلاً:

«هيَّا يَا عَزيزى وحِصَان أميرى المْلِك العَادِل النَّاصِر صلاَح الدِّين الأيُّوبى، يبْدُو أننَا سَنَتَحرَّكُ الآن كَىْ نُكمِلَ ما جَاهَدْنَا وَحاربْنَا مِنْ أجْلِه لسنوَاتٍ طِوال، صَحِيحٌ أنَّنا فقدْنَا الكَثِيرينَ جِدًّا مِنَ الاخْوَةِ والأحبَّاءِ، ولَكِنَّنا احتَسْبنَاهُم عنْدَ اللَّه شُهدَاءَ فِى سَبيل نصْرةِ دينه، وَفِى سَبيل الحَقِّ والعدل والسَّلاَم، هَيَّا.. مَولاَى يطلُبكَ لِكَى ندْخُل ونُحرِّر القُدْسَ والمسْجِدَ الأقصى، بعْد أن انتصر رجَالُنا علَى الصَّليبيِينَ فِى عكَّا وَحطِّين، ولنجْعلَها مَدِينةً لِكُل الأدْيَان ونَمُوذجًا عربيًّا خالصًا للتَّعاطُفِ والتَّوادِّ والإخَاءِ والمسَاوَاةِ بيْن كُلِّ البشَرِ».

يَا لسَعادَتِي.. فقد تحقَّق حُلْمِي، ولاَ أدْرى إنْ كنْتُ فِي الوَاقِع أو فِي الخَيَال.. سَارَ بي الجنْدِي حتَّى أوصَلَنى إلىَ رَجُل مَهيبِ الطَّلعَةِ، يا إلهي.. هل هَذَا صَلاحُ الدِّين..؟ فعلاً.. إنَّه القَائِدُ العَادِلُ التَّقِيُّ العَالِمُ، الكُل يُحيِّيه ويُكبر باسْمِ اللَّه.. ويدْعُو لَهُ بالنَّصر، اقْترَبَ مِنى الرَّجُلُ.. وأخَذَ يُربتُ علَى رَقَبتِي وَكَتِفِي ويمسَحُ رَأسى بحنو شَدِيدٍ.. الحمْدُ للَّه الَّذِى جَعلنِي أشهَدُ تِلكَ اللَّحظَات التَّاريخية المَهيَبة.. وَبسرَعةٍ وَخفَّة ورَشَاقةٍ امتَطَانِى سَيِّدِى وقَائِدِى، وبَدا كَأنَّه يُوجه لى ولقُوَّادِه ورجَاله الكَلاَم قائلاً:

«هيَّا يَا جند اللَّه، حسنًا حسنًا.. أنا وَحِصاني الحَبيب الَّذِى كَان خيرَ رَفيق لِي طِوَالَ سَنَواتِ الحرْب هَذِه خُضْنَا المَعارِكَ الضَّارِيةَ سَويًّا وَتلقينا آلافَ الضرَبَاتِ والطَّعنَاتِ بكلِّ قوَّةٍ وعَزْمٍ وَإصْرَار علَى نصرَةِ دِين اللَّه الحَقِّ، وقطعنا معًا آلافَ الأميَال في الصحَارَى والودْيَان وَالقِفَار، وتحمَّلنَا البرْد والحَر الشَّدِيدَيْن بكُل الصَّبْرِ وَالجلَد، وبتأييد مِنَ اللَّه ورَسُوله ها نحْنُ ذاَ نَحتَفلُ بدُخُول بيَتِ المْقدس، مُنْتَصِرينَ على الفِرنْجَةِ دعَاةِ السَّلامِ الكَاذِبِ، وقَد أكرَمَنَا اللَّه فِي هذَا اليْوِم المُبارَكِ - الثَّانِي مِنْ أكْتُوبَر عَام ١١٨٧م، أتم علينا نصرَه وطَردنَا الغُزَاةَ والغُرباءَ مِنْ هذِه الأرْضِ المقدسَةِ الطيِّبةِ، لقَدْ خرجُوا مِنها أذلاَّء بلاَ عودَةٍ إنْ شَاء اللَّهُ، هيَّا يا جنْدَ اللَّهِ.. يَا أبناءَ الكِنَانة، آن الأوَانُ للتَّحرك.. إلىَ الأمام.. اللَّه أكبر.. اللَّه أكبر».

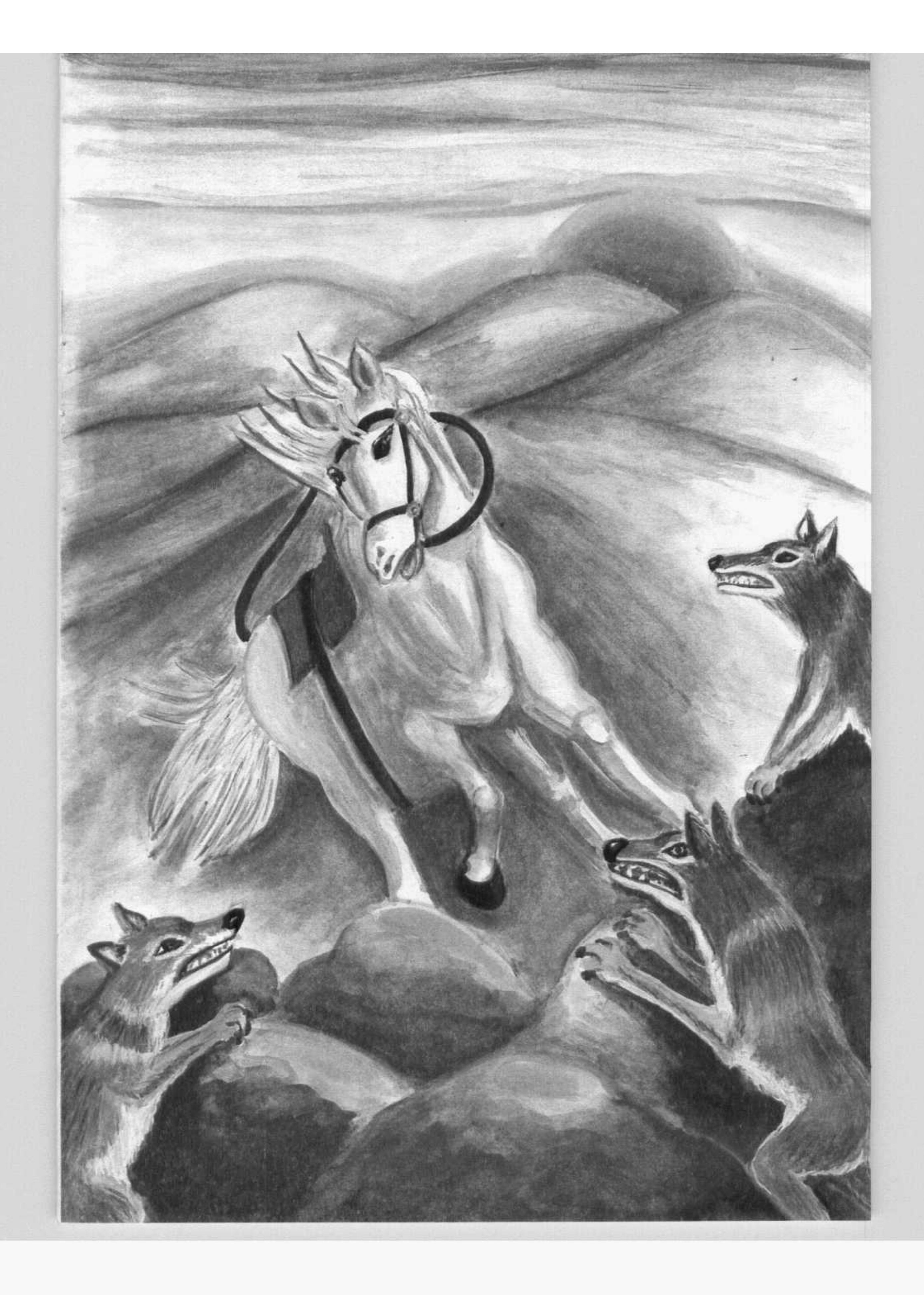
وَهكَذا يَا أصْدِقَائى اهتزَّتِ الأرضُ والسَّماء بِهَذا النداءِ، وانْتَفَضَ المكَانُ وتحرَّك الركْبُ أتقدَّمهم أنَا وأمِيرِى وقَائِدى العظيم بكُلِّ فخْرٍ وسَعادةٍ.. حوْلِي وخلفِي الآلاَفُ مِن جُنُودِه وَرجَالِه، وآلاَفٌ مِن المَواطِنِين العَربِ مسْلِمينَ وَمِسيحِيينَ، يُهللون ويهتفون ويُكَبرِّون اللَّه، وَكُلَّما اقْترَبْنَا منْ مدخَلِ المَدِينَةِ علاَ الهتَافُ والترحِيب، وارتفَعت الأصْوَاتُ المكبِّرة والمهللة، حتَّى وصَلنَا إلى المسْجد الأقصَى، وهُنَا.. نزَل/ صلاحُ الدين ليُصلى معَ رجالهِ والمُواطِنينَ المسْلِمين ركعَاتٍ

حمدًا وشكرًا لله، وبينمَا كَانت تَدق أجرَاسُ الكنَائِس تعَالتْ ترتيلاَت وتهلِيلاَت الرُّهبَانِ، يْحمَدُون اللَّه علىَ نصْره وعوَدِة الأمْـنِ والأمَـان بيْـن إخوَتـهم وأهْلِيـهم وذَويهم.

مَا أن خَرجَ / صَلاَح الدِّين وَرفَاقه مِـنَ المسْـجِد حتَّـى بـدأت الجمَاهِـيرُ تـزأر وتْهتِفُ، وظَلَّ هذا الضَّجِيجُ الفَرح الصَّاخِب يعلُو أكثرَ.. فأكثر.. فـأكثر، ولكِـن مَا هَذا..؟ يَا رَبِّى.. لقَد بَدأت تَتَحَوَّلُ الأصْـوَاتُ العَاتِيـة الهَاتِفَـة فِـى أذُنِـى إلى شىء آخَر، إنَّه زمْجَرَةُ وَعُوَاء.. إن بدَنِـى يرْتَجِـفُ.. اللَّـهُم لطفَـك.. وَوجَدْتُنِـى فجْأة أنهَضُ مِن نوْمِى العَمِيق وحُلمِى السَّعِيد الجَمِيل الَّذِى لم يَدُم طَويلاً.. !!! وَوقفْتُ مذْعورًا منْتَفِضًا منْ هول ما وَجدتُه أمَامِى.. يَا إلهِى.. لَقد نَزلَت الشَّمْسُ مِنْ كَبد السَّمَاءِ وبدَأت طريقَها للغُرُوبِ، وهَا أنا ذَا مُحَاصر بمجمُوعَةٍ مِنَ الذئاب الشَّرسَة الجَائِعة، مُكَشِّرةً عنْ أنيَابهَا تُزمجـرُ وتعْـوى.. يَـا رَبـىِّ مَـاذَا أفعـلُ..؟ سُبحَان مُغيِّر الأحْوَال مِن حَال إلىَ حَال.

دارَتْ بى الأرضُ.. ودعوْتُ اللَّه أنْ يُنجينى، وتمنْيتُ سـاعَتَها أن أرجِـعَ إلى مَكاَنِى الحِبيب، رَاضيًا قانعًا بالأمَان والحَياةِ السَّعيدَةِ الهادِئَةِ الرَّغـدَةِ الَّتِـى لَـمْ أعرفْ قيمتَها إلاَّ الآنَ، ودَعوْتُه أنْ يَهَبنِى العَافِية والقوَّة حتَّـى أسْـتَطِيعَ الفِـرَار مِنْ هَذه الطُغْمَةِ الشَّرِسَةِ.

وَفَجْأةً.. وبأعْلىَ مَا بى مِن قُوَّةٍ.. صَهَلْت مزمْجرًا متوّعدًا، واندفَعْـتُ كالسَّـهم بكُلِّ مَا بى منْ قُوَّة وسْطَ الذِّئـابِ، أرْكلُـهَا بعنْـفٍ بقدَمـىَّ الأمَـاميَّتَيْن وأرفُسُـهم بالخلْفِيتين، وَفِى نفْس الوَقْـتِ أخـذتُ أمْسِـك بأسـنَانِى كـلَّ مـنْ يقـتِربُ مِنـىّ وأنْفُضُه وَألقيه علىَ الصُّخُوُر محطَّمًا، وأنَا فِى شِدة الحِرْص علىَ ألا يقفزَ أحدُهم فوْقَ ظهْرى، فتكُونُ نِهَايَتِى لو اسْتَطَاع أنْ يقْضِم عنقِى، وهَكذا.. قتلْتُ مَا قتلْتُ وأصبتُ مَـا أصبتُ وفَـرَّ البَاقُـونَ، ووَجدتُنِى أعدُو بكُلِّ مَـا بى مِنْ سُرْعَةٍ وَقوَّةٍ،



رَاكضًا عائدًا نحْوَ مرْتَع صِبَاى، بْينما عَـادَت قِلَّـةٌ مِـن الذِّئـابِ تُطَـارِدُنِى وَهِـى تَعْوى حتَّى اقترَبَت كثيرًا مـنَ المـزارِع، وَهُنـا.. هُرعـت مجْموعَـةٌ مِـنَ الكِـلاَبِ لِنَجْدتِى عِندمَا سَمِعَتْ الذِّئابَ تعْوىَ وَأَسْرَعَت لمطَارَدَتِهَا، وَبحْمد اللَّـهِ ابتَعـدَتِ الذِّئابُ عَنِّــى وفـرَّت هَاربـةً، ووجَـدْتُ نفسـى محَاطًـا بأصْدِقـائى مِـن الكِـلاَبِ الوَفِيّة، تقوُدنِى بمودةٍ إلىَ حَيْثُ الإسطَبْل.

مَشْيتُ بينَهُم مُنهكَ القُوَى جائعـا أكَـادُ أهلـكُ عطَشًـا.. يـا للَّـه.. مَـا أحلـى الإحْسَاسَ بالأمَان بعْد الخوفِ والتَّعَبِ، وعنْــد أوَّل جَـدْوَل مـاءٍ أخـذْتُ أرتَـوى بشَغَفٍ شَدِيدٍ، وَسِرْتُ رُوَيدًا رويدًا وأنا بحَـق خَجِـل مِـنْ نَفسِـى، حَزِيـن جـدا حتَّى اقترْبتُ منَ البَابِ الكَبِير للإسْطَبْل، ومَا إن رَآنى العُمَّال والحَـرَسُ، حتَّـى هُرعُوا نَحْوى مُهَلِّلينَ وعلى ألسِنَتِهم أسئلةٌ عَدِيدَةٌ.. مَاذا فَعلت..؟ أيْنَ كُنـتَ..؟ ماذا حدَث لِى حتَّى أبدُو علَى هَذِه الصُّورَةِ..؟

وَقفتُ بينَهم فِى هدُوءٍ وندَمٍ شَـدِيديْن، وهُـم يرْبتُـونَ علَـى رَقَبتِـى ويمسـحونَ جِسْمِى بحنُوٍّ مِنَ العَرقِ البَـارِد الَّـذِى يتَصَبـبُ مِنـىِّ، ودُونَ أنْ يقُودنـى أحـدٌ.. اتجَهْتُ جائعًا إلى حَظِيرتِى فِى حِين أخَذَ العمَّالُ يُعِدوّن طعَـامِى الَّـذِى تَناولتُـه بلهْفَةٍ وَنَهمٍ شَدِيدَيْن حتَّى أستعِيد قُوَّتِى وعَافِيتى وَلَمْ يتوان صَاحِبى عَن الحضُور مسْرعًا، واحتَضَنَنِى مُعَاتِبًا مُوَجهًا اللَّومَ لِـى وَهُـوَ يَربـتُ علَـى رأسِـى ويمْسَـحُه بحنَان، وَيُلقِفُنِى بقطعِ السُّكَّر محاولاً تهْدِئتى وَإرْضَائِى قَائلاً:

«لِماذَا تركتنَا هَكذا يَا عَزيزى شِهَاب.. لقَد خِفْتُ أنْ يُصِيبَـك مكـرُوهٌ، أنـت حِصَانِى المُفَضَّلُ، لَكِن مَاذا جَرَى ومَـاذا أغْضَبَـكَ منَّـا..؟ لا عليَـكَ.. يبـدُو أنَّنـا حَبسْنَاكَ وقيدنَا حُرِّيتَك كَثيرًا، وَلكِنْ قُل لِـى.. مَـا هَـذِه السُّـرعَة الفائِقَـةَ الَّتِـى انطَلقْتَ بهَا، واللَّه لَو كنْتَ فِى سِبَاق حَقِيقى لفُزتَ به لاَ مَحَالة، أنَا أعتَذِر لَكَ بشدَّةٍ لعَدَمِ تقديرى لكفاءَتِك يَا صديقِى، مِنَ الآنَ سوْف تكُونُ وَاحدًا منَ الخيُول

الَّتِى نُدرِّبها وَنُؤَهِّلُها لتَصِبح منْ خيُول السِّباقِ والفرُوسِيَّةِ الشَّهيَرة إن شَاءَ اللَّـهُ، عَلى كُلٍ.. الحمْدُ للَّه علَى سَلاَمَتكَ».

وَهَكذا انَتَهت علَى خيْرٍ هَذِه المُغَامَرة المَريرَة، كمَا انتَهَت متَـاعِبى وَوسَاوسِـى النفْسِيَّةِ الَّتِى نغَّصَتْ علىَّ حيَاتِى وكَادَت تَوردُنى الهَـلاكَ، إنَّ الطمُّـوحَ وَالأمـل فى حياةٍ أفضَل مطلُوبٌ جدًّا وَلكن فِـى حـدُودِ الإمكانِيَّـاتِ والظُّـرُوفِ المُتَاحَـةِ، ودُونَ أنْ يلْقِى المرْءُ بنفسِه مَوارد التَّهلُكَةِ، ودُونَ أن يْخسَر نَفْسَهُ وكَرامَتَهُ، وَلولاَ فْضلُ اللَّه ورَعَايته لكَانت العاقِبة غير مَحْمُودَة.

والآنَ.. الآن فَقط.. يَا أعِزَّائِى عرفْت أن لاَ كرامة لأحَـدٍ إلاَّ فِـى وَطَنِـه وبـينَ أهلهِ وأحبابهِ، وَلْيرضَ كُلٌّ منَّا بمَا قَسَمَه اللَّه لَهُ، عَليْنَا فَقَط أنْ نعمل بالأسَبابِ ونجتَهِدَ ونكَافِحَ، ونأمَل فِى اللَّه خيرًا، وهو نَاصِرُنا إن شَاء اللَّه.

□□□

غدًا تهتز الأوتار

اسْتيقظَ صديقُنا / عَادِل هَذَا الصَّبَاحَ مِنَ النوْمِ متأخرًا علَى غَـيْرِ العَـادَةِ.. آه.. فالْيَوْمُ يوْمُ الجُمُعَةِ.. إجَازَة، قَامَ مِنْ سَريره مُتَكَاسِلاً متباطئًا، ذهَـب إلى الحمَّامِ وغَسَل أسْنَانَهُ جَيدًا بِحُكْمِ العَادَةِ، ثُم توضَّأ وصَلَّى الصُّبحَ.. وهَا هُوَ صَوْتُ أمِّـه تنَادِيهِ لتَنَاوُل طَعَامِ الإفطَار مَعَ وَالِدِه وَإخوَته كمَا تعوّدوا، حَمِـد الله كثـيرًا، ثـم حدَّث نَفسَه مُتسَائِلاً:

الآنِ مَاذَا أفْعَل، الحَمْدُ للّـه أتممْـتُ عَمَـل وَاجِبَـاتِي ومذَاكَرتِـي بـالأمس كمَا تعوَّدتُ، فَأنا لاَ أحِبُّ أنْ أتْرُكَ عَملَ اليْومِ إلىَ الغَـدِ أبـدًا.. ولا يَبقَـى لِـى إلاَّ أن أمَارسَ إحْدَى هوَايَاتِى النَّافِعَةِ المُتَعَددةِ، ولَكِن يَا ترَى.. هلْ أقرأ كتابًا منْ كنُـوز العلمِ والمعْرفةِ الّتِي تمْتَلِئُ بها مَكتبتُنـا..؟ هـلْ أتَمِّـم رسْـمِ لوْحَتِـى الَّتِـى بَدأتُـها الأسْبُوعَ المَاضِى..؟ أمْ أذهبُ إلىَ حجْرَةِ الصَّالُون لأداعِب أصَابع آلـةِ - الأوُرْج - - الّتِى اشْتَرَاهَا لِى أبى بمنَاسَبة نجَاحِي بتَفَوُّقٍ هَذَا العَام، وسَاعَدنى كثـيرًا فِـى التعرُّفِ عَلَى هَذِهِ الآلة الموسيقيَّةِ الإلكترُونيـة الحَديثـةِ الأورُوبيـةِ الأصْـل، فـهُو مِثْلُ أبيهِ.. جَدى - رحمـة اللهَ عليـه، هاويًـا محبًّـا ومتذوقًـا جيـدًا للمُوسـيقَى الجَيِّدةِ بمُختَلفِ نوْعِيَّاتِها، كمَا أنَّه يُجيدُ العزفَ علَى - العوُدِ الّـذى وَرثـه عـنْ أبيهِ، ولكنَّه لِلأسَفِ مُعلق علَى الحائِطِ فِى كيـس مِـنَ القَطِيفَـةِ بجـوَار المَكْتَبـةِ وفوْقَ الأورْج، صَامتًا منزويًا لم يلمَسْهُ أحدٌ منذُ عدَّةِ سنوات فقدْ انشـغلَ أبـى عنْه ولَمْ يَعُـدْ يَلمسُـه إلاَّ نـادرًا، خاصَـةً بعْـد أنْ أخَـذَ الأوُرْجُ معْظَـمَ اهتِمَامَاتِنـا حَاليًّا..

لمْ يتردَّد عَادِلٌ ودَخَل حُجْرةَ الصَّالوُن مُسْرعًا.. أقفَل بابَه عليْه ووقَفَ حـائرًا يفَكِّرُ، واتَّجه بنظرِه مبَاشَرَةً إلىَ الأورْج، وَلكنَ.. وَقَع بَصـرُه علَـى العُـودِ القَـابع علَى الحائِط أعلاَهُ، ثم ارْتَدَّ بَصَرُه إلى الأوُرج ثَانِيةً.. ثُمَّ إلىَ العُودِ مرَّةً أخْرَى..

وفجْأةً.. أحَسَّ عَادِلٌ بأن العُودَ يرنُو إليْهِ صَامتًا حزينًا.. وَأنَّه يُريُد أنْ يُفْضِي إليْهِ بِشيءٍ.. وبَدا – عُودُ جَدِّه شَاحبًا حَزينًا تعْلـوُهُ بعْـضُ الأتربَـةِ، وكَثِـير مـن غُبَار النسيَان وَالتَّجَاهل ، وأيْقَن أنَّ العُودَ يُريد أنْ يقُولَ لَهُ شيئا مَا.. نَعَم.. إنه يُريد أن يَبُوحَ إليْهِ هُوَ فَقَط دُونَ غَيرِهِ بِشيءٍ فـي نفْسِـهِ، وَيُفْضِـي إليْـه بمَـا فِـى نفْسِه مِنْ مشَاعِرَ وأحَاسِيسَ مَكْبُوتَة تُثْقِله طوَالَ هَذِه السِّنين..

جلَس عادلُ مترقبًا علىَ أقرَبِ كُرسِي إليْهِ، مُصغيًا بإمْعَان لِـا يَـود العُـود أنْ يُحدثُه بَه، وبعْد لحظَاتٍ قَليلةٍ منَ الصَّمْتِ، بَادَره قائلاً وفِيَ صوْتِـه شـيء مـنَ الشَّجَن:

– يَا عَادل.. أرجُو أن تكُونَ عَادلاً بِحـقٍّ.. لِـاذَا جفوتُمُونِـى هكَـذَا كـل هَـذِه السِّنِين، لقد جفَّت أوتَارى وترَهَّلَتْ وارْتَخَتْ، ولَم يَعدْ يَعبأ بى أحـدٌ منـذُ وفَـاةِ جَدِّكَ؟..

– لكَ كُل الحقِّ فِيما تقُولُ، وَلكنني رَأيتُ وسَمِعْتُ وَالـدِى يُداعِبُـك أحْيَانًـا، وكنُتُ أسْتَمْتِعُ جدا بعزْفِه وغِنائهِ الجَميل..

– لقَد تَركَنِي وَالدُكَ ونَسِيَنِي، ربَّمـا أخذتْـهُ مَشَـاغِلهُ عنـى.. وَلكِـن اشْـتَاقَت أوتَارى واشْتَقْتُ إلى الأيَّام وَاللَّيَالِي السَّعِيدَةِ الَّتِي كانَ يحتَضِنُنِي فيها جَدُك بيْـنَ ذِرَاعَيْهِ، وكَانت لاَ تهْنَأ لَهُ سَاعَاتُه وَلَيَاليـه إلاَّ فِـي صُحْبَتِـى، تُدَاعِـب أصَابِعَـه وَريشَته أوْتَارى الرَّقِيقَـةِ، فَيصدَحُ صوْتـى رَنانًـا صَافيًـا مـنْ أعمـاقِى ومـنْ بيْـن أضْلُعِى، وتلْتف العَائِلَةُ حوْلنَا فِي حُبٍّ وتَوَادٍّ وسَعَادَةٍ وَهُوَ يُغَنِّى ويعـزفُ أحلَـى الألحَـان العَربيَّـةِ.. هـذِهِ قَصِيـدةٌ مـنْ أغـانِى أمِّ كُلْثُـومٍ.. وهـذِهِ إحْـدَى رَوَائِـع

عبْدِ الوَهــابِ.. وذَاكَ لحْــنٌ مـنْ رَوائِـع الابدَاعَـاتِ المْتِعَـةِ لفنَّـان الشَّـعب سَـيِّد دَرْويش.. ونحن جميعًا ساعتها فـى توحـد كـامل بـين أوتـار حنجرتـه، وبـين حنجرتى.. آسِـف أقْصدُ رَنيـنَ أوْتَـارى، والجَمِيـعُ جَالسِـوُن حولَنَـا يشْـتَركُون بالتَّرديدِ أوْ بالتَّصْفيق الرَّقيق عَلَى الواحدةِ.. كمَا يقُولونَ.. يَاه.. يَا لَهذه السَّعَادَةِ الأسرية الغامِرَة، شىء تَفْتَقدُونَهُ الآنَ لِلأسَفِ الشَّـدِيدِ.. ثـم صَمَـتَ العُـودُ قَلِيـلاً كمَنْ يجتَر ذِكريَاتِه وأحزانه.. ثم عَادَ يقُولُ:

– يَا عَادِل.. لماذا لاَ نُعِيد صدَاقَتَنا مِنَ الآن.. فقاطَعه عَادِلٌ بسُرْعَةٍ قائلاً:

–نحْن فِعلاً أصْدِقاء.. ألسْنَا نَسْكُن فِى منْزل بَل فِى شَقَّة وَاحدَةٍ؟.. و..

– نعم.. هَذا صَحِيحٌ، ولَكِن يَجب أنْ نَقتَربَ مِنْ بعْض أكْثرَ.. فأكثر.. هَيَّـا خُذْنى بيْن يَدْيكَ ودَاعب أوتَارى.. رُبَّما لاَ تُحسِـن العـزْفَ والتحَـاوُرَ مَعِـى فِـى البدَاية، ولَكِن بشىء مـنَ الصَّـبْرِ والثقـةِ سرْعَان مَـا تَجِـدُ سُـهُولةً فِـى العـزْفِ تدريجيًا، لاَسيَّما وَأنتَ تتمَتَّعُ بأذُن مُوسِـيقِية وَحِـس فَنِّـى مُرْهَـفٍ كمَـا أعـرفُ عنْكَ..

فِى هذِه اللحظَةِ.. مَـد عَـادِل بَصَـرَهُ إلىَ – الأورْج القَـابع أمَامَـهُ عَلـى أرْجُلِـه المعَدِنيَّةِ، وكَأنَّه يسْتَمِع إلىَ هذا الحَدِيثِ ، صَامتًا باهتمامٍ كَبِـيرٍ وبـدُون تَعْليـق، إلى كُلِّ كَلمَةٍ قَالَهَا العُود الَّذِى اسْتَطردَ عتابَهُ لعِادل قائلاً:

– هَـذا الزَّميـل الخَواجـة الأجْنَبـى.. أقْصُـد الخواجَـةَ أورْج، هـذه الآلـةَ الإلكْترُونِيَّة الكَهْرَبائِيَّة المُبْهَرة التـى تُصْدرُ الأصْوَاتَ المُصْطَنَعَـة المُبَرْمَجَـة الَّتـى تُرِيدُها فِعلاً، ولكنَّها بلا روُح وَبلا إحْساس، قَد يكُونُ صوتُه أقْوى وأضْخَـم مِـنْ صُوتِى ولكِنَّ الصَّوتَ ليْسَ بارتِفاعَهِ وَقُوتِه كَالْطَّبل الأجْوفِ، ولَكِـن الصَّـوتَ بمَـا يحمِلهُ مِنْ أحَاسِيسَ وَمعَانِى وَقِيَم لَهَا أصَالتُهَا.. هَذه الأصَابعُ البيضَاءُ والسَّودَاءُ، يْنطَلِق الصَّـوتُ زَاعقًا بعد لمسِهاَ مِن السَّماعَاتِ المُلْحَقةِ بالآلـة مبَاشَرةً، سَوَاء



لَمسْتَها برقة أوْ بقُوةٍ، بل كمَا تضْبطُها وتبرمِجُها علَـى الصَّـوتِ المقَلَّـدِ المطلُـوبِ بواسطة مفَاتِيحَ أخْرَى.. وهُنا قاطعه عَادِل ثانِية:

– وَلكِنْ يَا صَدِيقى لاَ تَنْسَى الإمكَانِيَّاتِ الفَنْية والصَّوتية الهَائلِة الَّتِـى يتَمتـعُ بهَا زَمِيلُنَـا – الأورج فـهو يُدمِـج ويشـكلُ ويُنـوِّعُ الأصـوَاتَ ويُلوِّنـهَا ويُصْدِرُهـا بمختَلفِ أصْوَاتِ الآلاَتِ والمُؤثراتِ الصَّوْتِية المُخْتَلِفَةِ، إلىَ جَانبِ تَقْلِيـد أصْـوَاتِ الآلاَتِ الإيقاعِيَّة وغَيْرهَا..

– فعلاً.. باسْتِطَاعَتهِ تقْليد الأصْـوَاتِ والآلاَتِ المُوسِـيقَيةِ الأوُروبيَّـة والشَّـرقيَّة والعَربيَّةِ أيضًا بمَا فِيهَا صَوْتى أنَا شخصيًّا، ولكِن شتَّان بيْـنَ الأصْـل والصـورَةِ، فأصْوَاته زائِفَة مُصْطَنعة (فَالصو) كمَـا يقولـونَ.. بـلا قلْـبٍ ولاَ عقْـل ولاَ روُحٍ ولاَ وُجْدَان، أمَّا أنَا وأقْرَانِى مِنَ الآلاَتِ المُوسِيقية المصْريـة الصَّميمـة، فَنحـن حَمَلـة تُراثٍ وَحضارة أجْدَادِكَ الفَراعِنة الَّذِيـنَ ابْتكَـرُوا آلاَتِ – الجنـك أو الهـارب، وَهِى أوَّلُ الآلاَتِ الوترِيَّة الَّتِى عَرَفَهَا التَّاريخُ، كمَا ابتْكَرَ الفَراعِنَـةُ الأعْـوَادَ ذَات الرَّقبة الطَّويلةِ والقَصِيرةِ مِنْ أجـدادِى، ونقلَـهَا عنْـهُم بعْـد ذلـك الأشُـوريُّون ثُـمَّ الفُرْس..

كَمْ تَرددتْ بيْـن جَنَبـاتِ قُصُـور وَمَعَـابِد الفَرَاعِنَـة الألحَـان العْذبَـة الرَّقِيقَـة، بِكَلِماتٍ وضَعَها حُكَماؤُهُم لِيُعلِّموُا أبناءَهُم الحِكْمةَ وحُبَّ الحيَاةِ والأَرْض والنّيـل والوَطَنِ والأهْل.. ألاَ تعلَـمُ أنـهم كَـانُوا يصُوغْـون القوانِـينَ عَلَـى شَـكْل أغْنِيـات لِيسْهُلَ تَردِيدُهَا وَحِفظها وتَدَاوُلها، لِكَىْ يَتعلَّمَ مِنْـهَا الجَمِيـعُ أحْكَـامَ العلاَقَـاتِ بيْنَ الكَبيرِ والصغير، وبيْنَ الآباءِ والأبنَاءِ وبيْـن الشَّـعْبِ والحُكَّـام.. حتَّـى تَظَـلَّ هَذِه المأثُورَاتُ والحِكم والمَعَارِفُ الشعْبية مَتوارَثةً بيْنَ الأجيَال، مُعَبَّأة فِى أغنِيَـة أو تَرنِيمة رَقِيقَةٍ وَلَحْن عَذْبٍ لاَ يُنسَى..

صَمَتَ العودُ قَليلاً كَأنهُ يَسْتَرْجِعُ ذِكريَاتِه وأفكاره.. واسْتَطْرِدَ يقُولُ..

– أنَا ولاَ فَخْر.. أعْتَزُّ جَدا بأجدَادِى مِـنَ الأعـوَادِ الَّتِـى أشْـبِهُهَا أنَـا تمامًـا، والَّتى صَنَعهَا – منْصُور زَلزَل فِى الكُوفة بالعِرَاق فِى بدايةِ القرْن التَّاسع المِيلاَدِى (الثَّانِى الْهجْرى) وكَان أشْهَر مَنْ عزَفَ عليهَا فِى دوْلَةِ العباسِيِّين، وعلَى يدَيْـهِ تعلَّم / إسْحَق المَوْصِلى وابنه إبراهيم اللَّذَان اهتزَّت لأغَانِيـهَما وأشعَارهما قصـورُ هَارُون الرَّشِيد وليَالى بغْدَاد، وكمْ صَدحَتْ أعوادُهُمَا وحنَاجِرهما بأجمل الألحَـانِ وتغَنَّيا بأرق المَعانى والأشعار.. ».. وأكمَل حديثه قائلاً:

وبالرَّغم أنَّ العرَب أخَذُوا العودُ بشكِلهِ الحـالِى عَـن الفُـرْس والـرُّوم، إلاَّ أنَّـهُ أصبَحَ فِـى أيديـهم عربيًّـا خالصًـا، حِينمَـا اسْـتطَاعُوا مُعَالجَـةَ ألحَـان الأمَـمِ والشُّعوُبِ الَّتِى دَخلَتِ فِى الإسْلاَم بروح عَربيةٍ خَالصةٍ، وأن يُعيـدُوا فَـنَّ الغِنَـاءِ العربىِّ المتقَن القَديم بشكُل جديدٍ قَائم علَى أسُس فَنية دَقِيقةٍ كان العُودُ بـالطَّبع هُو أدَاتها الأوُلى، وَلاَ تَزَالُ أصُولُها وطَرَائِقُها متميزَّةً حتَّى الآنَ..

هلْ تَعلمُ أنَّه لَمْ يُنَازع آل المَوْصِلـى فِـى فنُـون الغِنَـاءِ والعـزْفِ، سِـوَى الأمـير إبراهِيمَ بن المهْدِى شَقيق الخَلِيفَـة / هَـارون الرَّشِـيدِ، ومِـنْ بعْـدهِ كـانَ الخليفَـةُ العباسُى / الواثِقُ، الَّذِى اعْتبرُوه أشْهَرَ مَنَ غَنَّى ولحَّن بيْـنَ جَمِيـع خُلفَـاءِ بَنِـى أميَّةَ وَبنى العبَّاس، وَلكِنَ وَا أسفَاه.. فَقد بَدَأ التَّدهْور يَعُـم الفُنُـون جَمِيعَـها مَـعَ نِهَايَة العصْـر العَّبَاسِـى، خاصَّـة بعْـدَ سَـيطَرةِ المَـاليك والعْثمَـانِيينَ عَلـى مصْـرَ والشَّام، كمَـا تَدهـوَرتِ العُلـومُ والثَّقافَـةُ والفِكْـرُ المُسْـتَنِيرُ، والحيَـاة الاجْتمَاعِيَّـة والاقتصَادِية والسِّيَاسِيَّة لِعدَّة قُرون،.. وقَديمًا يا صَدِيقى قَالوُا..

«إذا مَرضَت الدَّوْلة، مَرضـتْ عقُـولُ كُتَّابِـها ومُفَكِّرِيـهَا وَفُقَهَائِـهَا وتَدهْـوَرَت فنُونُـهَا»..

أمَّا فِى الأندَلس، فَقد لمَعَ اسم – زرياب القَادِم منْ بغْدَاد، حَافظًا مِنْ تُـراثِ المُوسِيقَى والألحَانِ العَربيَّة ما بَلغَ تِعْدَادَهُا حَوَالى عَشـرَةِ آلافِ لحْـن، نقَلـهَا إلىَ

الأندَلُس وصَار هُنَاكَ أشْهَرُ منْ يُغَنِّى وَيعزفُ علىَ العُودِ، ولم يكْتَفِ بذَلِكَ، بـلْ طوّرهُ بما أدخَلَهُ عليْهِ مِنْ تَعْدِيلاتٍ فِى صِنَاعَـةِ أوتَـارهِ وَزيَـادةِ عَدَدِهَـا، ليُصْبِحَ أجدَادِى مِنَ العِيدَان آلاَت مُتطَوِّرَة كَامِلةُ الصِّنَاعَةِ، وَهكَـذا أصْبحَ - زريَـابُ.. أىْ البلبُلُ المُغردُ، يشْدُو فِى ليَالى المغْرب والأنْدلُس، وألهبَتْ ألحَانُه ومُوَشَّـحاتُه الشَّعْريةُ الطَّروبَةُ الرَّقِيقةُ مشَاعِر العربِ، وعطَّرت لَيَالِىَ أهْلِ الجَزيـرَةِ الأيْبيريَّـةِ الأنْدَلُسية علَى السَّواءِ.

سَكت العُود قَلِيلاً عَن الحَديث،.. رُبَّما متحسـرًا علـى أمجَـادِ أجْـدَادِه.. ثُـمَّ قَال:

قَد لاَ تُصدِّق يَا عَـادِلُ يَـا صَدِيقِـى.. أنَّ العُـوَد ومُوسِـيقَاه بـهرَتِ الأورُوبيـينَ أيضًا، واسْتَعاروه ونقَلوُه إلى أورُوبا ليصْبحَ بعد ذَلِـك سَيِّد الآلاتِ المُوسِـيقية فِـى أورُوبا كلها لِعِدَّة قرون، بعْدَها تنَاولُوهُ بالتَّعْديل حتَّى يتوافق مَعَ طَابَع مُوسِيقَاهُم المتَعدِّدةَ الأصْواتِ والألْحَان الَّتِى تسْمعُ فِى نفْس الوقْتِ، ويتناسَـبُ ومُوسِـيقَاهُم ومقَامَاتهم الَّتِى لا تحتَاجُ إلىَ الدَّرَجاتِ ذاتِ أرْبَاع النَّغمَاتِ، وهكـذا.. خرجَـت مِـنْ أصلاَبنـا آلات أخـرى أورُوبيَّـةِ الجِنْسِـيَّة، وَلكنَّـهَا عَرَبيَّـةُ الأصْـل مثـل: المَاندُولين والكِيتَارُونى ذِى الرَّقبتين ثم - الجِيتَار..

هل تَعلمُ يا عزَيـزى.. أنَّ - أبَـا نصْـر الفـارابى، ابـن سِـينَا، ابْـن الهيْثَـم، الكِندِى، صَفِى الدِّين بن عبْدِ المؤمِن وغيرْهم..، وهُم مِـنَ العلمَـاءِ المسْـلِمين رُوَّاد فِقه اللغَّةِ والشَّريعَةِ والطِّبِّ والكيمياء والفلسَـفَةِ وَالفَلَـكِ.. الخ، كَـانُوا أيضًـا مـن أعْظَم العُلَمَاءِ فِى فنُون وعُلُـوم المُوسِـيقَى ونَظَرياتِـها العِلميـة والفيزيائِيَّـة، وعَلَـىَ أسُس نَظَرياتِهم العلْمِيَّة والعَمليَّة قَامَتْ الحضَارةُ الموسيقيَّة الأورُوبية، كمَا وضَـع العُلمَاء العَرب مَبادِئ التدْوين المُوسِيقِى الَّذِى طوَّرتْهُ أورُوبا فِى العصُور الوُسْطَى، إلىَ جَانب قَوَاعِد ونَظَريَّاتِ التَّلحِـين والتأْلِيفِ المُوسِيقِىِّ وَأسُسُ التوَافُـق والتنـافُر

بيْن الأصْوات (الهَـارمونِى)، ودرَسُوا المقَامَـاتِ والسَّلالِم والدّرجَـاتِ الموُسِـيقِّية وتصْنِيفِها، وأيضًا عدّلوُا وطَوَّرُوا الآلاتِ الموُسيقية، وابْتَكَروا آلاتٍ أخرى لمْ تَكُنْ معْروفَةً بعْد مِثْل: القَانوُن وغيره. ومَا زالَتْ كتُبهُمْ ومرَاجِعُهم تُدرّسُ فِى جَمِيـع الأكَادِيميَّاتِ الفَنيةِ فِى أورُوبًّا والعالَم حتَّى أيَّامِنَا هَذهِ.

يَا عزَيزى.. لاَ أقُولُ لكَ ذَلكَ غُرورًا ولاَ كِبريَاء، ولاَ أريدُ منْكَ أنْ تَترُكَ الأوُرْج وتعُودَ لِى فَقَط.. كلاَّ واللهِ.. فلسْتُ أنَانيا، ولَكنى فَقَطْ أدُلُّكِ علَى مَاضِى وحضَارَةِ وتُرَاثِ أجـدَادِكَ، وأنـير لـكَ الطَّريـقَ لِتتعـرَّف علَـىَ هَويَّتـك المصْريَّـة والعَرَبيَّـة العَريقَة.

لَكِن.. لاَ بأسَ.. إذَا احتَاجَتْ أوهَفَتْ نفْسُكَ لِشَىءٍ منَ اللَّهْوِ والإثَـارةِ والمُتْعَـةِ الوْقتيَّةِ.. فالأوُرج كَفِيلَ بذلِكَ.. ولكِنْ أرْجُو ألاَّ تُؤذِينى وتُـؤْذِى مـنْ معَنَـا فِـى البيْتِ أوْ تُقْلِق الجِيرانَ بالضَّجيج والصَّوتِ المرْتَفِع، قدْ يكُونُ بينَـهُم المريـضُ أوْ المتْعَبُ ومَنْ يحتَاجُ للرَّاحَةِ وَيبحَـثُ عَـن الهـدُوءِ للقـراءَةِ أو مُذَاكَـرة درُوسِـه.. يَا عَادل.. ليسَتْ متْعَتُنَا مَدْعَاةُ لمُضَايَقَةَ وإقلال راحةِ الآخَرين، أمَّا أنَـا.. فَطبعًـا يمكِنُكَ أنْ تأنسَ لِى برقَّةٍ، وتسْتَطيعُ أنْ تَسْتَمْتِعَ وأسْتَمتِعُ معَـك بـاللَّحْن الحلْـو العذْبِ، والأغْنيةِ الرَّقِيقَةِ ذَاتِ المعَانِى الرَّفِيَعة السَّامِيةِ.

.. تَلفَّت العُود حولَهُ برْهَةً ونظَر إلىَ - الأوُرْج القَابع أسفَله وقَالَ..

- مَاذا أقُولُ لكَ أكْثرَ مِنْ هَذا، إننى أحِسُّ أنَّك بَدأتَ تفْـهَمُنى فِعْـلاً، ولَكِـن اعذُرنِى.. هذَا عِتابٌ رَقيقٌ بيْنَ صَديقَين وجَارَيْن، فأنَا كمَا تعلَـمُ.. موجُـودٌ هُنَـا فِى هذَا البيتِ قبْل أنْ توُلدَ ويُولَد أبُوكَ منْ قَبلكِ أيضًا.. ومِنْ حقَّـى عليـكَ أن ترعَانِى وتعتَنِى بى، وأسْألك أنْ تُعيدَ لِى صوتـى ورنـاتِ أوْتَـارى، أنَـا أذكِّـركَ بالماضِى..، أما الحَاضِرُ والمسْتقبلُ فهُو لكَ، وسَأكونُ سَعيدًا جـدًّا إذَا مَـا تغنيْنَـا معًا بأحْلَى مَا عِندَكُـم الآنَ مِـنْ موُسِيقَى وألحَـان، فأنَا أعْتَقِد أنه مَا زَالَتْ هُنَاكَ



آمَالٌ عَريضَة فِى الإصْلاَح، وهُنَاك العَديدُ مِنْ المُوسِيقيينَ مِمَّن لَمْ يفقدُوا هويتَهم الفنيَّة تمامًا، وما زَالتْ ألحَانُهُم تحْمِل عَبقَ المَاضِى معَ شىءٍ من الحدَاثةِ والمعَاصَرَةِ..

هَذِه معَاهَدة نُوقعهَا سَويا، نسْتَطِيعُ بهَا أنْ نتجَاوزَ العقبَاتِ ونُصَارعَ الزَّمن والظُروفَ، لنَكْتُبَ تَاريخَنَا بأيْدِينَا ولاَ نَدعَ أحدًا يمْلِيهِ علَيْنَا، أوْ يعْمِى أبصَارنَا ويمْلأُ أسْمَاعَنَا وأفْئِدتَنَا بالابتكَارَات والاختِراعَاتِ الحَديثة والمُبْهرة الَّتى كثيرًا ما ننقَادُ إليْهَا بسذَاجَةٍ، وهُو مَا سيبْعِدنَا كثيرًا عنْ جذُورنا وأصولِنا وعقَائدنَا وشَرائِعنَا..

تأثَّر عادلٌ كثيرًا، وسَرتْ فِى جسَدِه رعشَة ملأتْه زَهْوًا، وقالَ للعودِ..

– عَظِيم جدا.. واللهِ لكَ كلُّ الحَقِّ فِيمَا ذكرْتَهُ.. هيَّا زدْنِى واشرَحْ لِى..، ماذا عن الفترةِ الذَّهَبيَّةِ للمُوسِيقَى المعَاصِرَة..؟ فردَّ عليْهِ العُودُ مسترسلاً..

– أترُيدُ أنْ أحْكِى لكَ عَنْ أسَاتِذةِ عوْدَةِ الرُّوح المِصْريَّةِ والعَرَبيةِ للمُوسِيقَى والغنَاءِ، هؤُلاَءِ العبَاقِرَة الَّذِين مَلَئُوا حيَاتَنا سَعادةً وحُبا فِى الله والوطَن والأهْل والأحباءِ، وعلَّمونَا الكَلِمَ الطَّيبَ واللَّحْنَ العذب الرَّقِيقَ المُهَذِّب للمشَاعِرِ والوُجْدَان..، هل أذكرُ لكَ ما كَان قَبْلَ أنْ تعوُدَ ثَانِيةً فِى أيَّامِكم هذِه الهجْمَةِ المُسِفَّة، هَجْمَة الغربَان والجهَلَةِ منْ فنَّانى الملاَهِى اللَّيْلية وشَرَائِطِ الكَاسِيت ومَا يُسَمُّونَهُ – الفيدْيُو كليب، ومَنْ يرْتَزقُونَ ويثرُونَ ويتَاجرُونَ فِى إفسَادِ أذوَاق جيل كَامل، بدايةً مِن – الطشت قللى.. إلىَ كمننة،.. سَامَحهم اللهُ..

أين ألْحَانُ وأدوَارُ / مُحَمَّد عثْمَان وعبْده الحَامُولى وسلاَمة حجَازى وعبْدِ الحَى حِلْمِى وَأبى العلاَ مُحَمدَّ.. وغيرُهُم كثيرُونَ، لقد أعَادَ جَمِيعُهم أمجَاد فَن الغِنَاءِ العَربى الرَّفِيع لَحْنًا.. وشعرًا ونثرًا، خاصَّة بعْد أنْ طَغَتْ أسَالِيبُ الغِناءِ الغجَرى

والعثمَانِى والفَارسِى الرَّكِيكِ وعَبثتْ بحناجِر المطْربِينَ والمُطْربَات العرَب وَالمِصْريينَ لعِدة قرُون،.. أيْنَ القصَائد والمُوشَّحَاتُ والطقَاطِيقُ والأغْنيات الَّتِى تعلَّم منهَا الشَّعْب الأُمِّى أصُول وقَواعدَ نطْق اللغَةِ الفُصْحَى، وتَداولُوهَا لِتصْبح ضِمنَ مفْردَاتِهم اللُّغوية اليَوميَّة، أى أنَّ الأغنية واللَّحْنَ كَانَا معًا المْدرَسَة والجَامِعَة الشَّعْبية المجَّانية للثقافَةِ واللُّغَةِ فِى مِصْر، منْذُ القَرْن التَّاسِع عشَر حتَّى الثُّلُث الأخِير مِنَ القْرن العشْرينَ، وَلكِن.. الآنَ يا حسْرتَاهُ.. يتعلَّمُ الأطفَالُ كلَّ يوْم محْصُولاً زَاخرًا مِن الكَلِمَاتِ البَذِيئَةِ والتَّعبِيرَاتِ المُسِفة، يبتكِرهُا لَهُم الجهَلَةُ والسُّوقَةُ والمسَاطِيلُ فِى سُوق الأغْنِية.. ولاَ حولَ ولاَ قُوَّة إلاَّ بالله..

أكْثر مِنْ ذَلِك.. هلْ أذكِّرك بفَنَّان الشَّعْب / سيِّد درْويش - الَّذِى صَاغَ اللحْنَ المِصْرىَّ برُوح أبنَاءِ الشعْبِ ونقله إلىَ كُلِّ مَكان، وأضَافَ ورفَاقه اللَّمسَةَ التعْبيريَّة والوجْدانِيَّة والوَطنيَّةَ فِى الغنَاءِ والمُوسيقَى المِصْرِيَّة، هؤلاَءِ الَّذِينَ حرَّكوا الوُجْدَان والشعُورَ الوَطَنِىَّ للشَّعْبِ بكُل طوَائِفهِ، لينْقُل الأغْنِيةَ واللحْنَ مِن الصَّالاتِ والمسَارح إلىَ الشَّوَارع والبيوتِ..

أيْنَ فرسَان الكَلِمَةِ المُغنَّاة مِنَ الشعَرَاءِ والزَّجالِين والكُتَّابِ، بدَاية مِنْ: أحمَد شَوْقِى إلى بيرَم التونُسِى، أحمَد رَامِى، مرْسِى جمِيل عَزِيز.. وغيرُهم، حتَّى مُحمد حَمْزة، عبد الوهاب مُحمد، الأبْنُودِى..

أيْنَ زُعمَاء الجِيل الثَّالثِ للمُوسِيقَى والغِنَاءِ المصْرىِّ مثل: زَكَريَّا أحمَد، محمد عَبْد الوَهاب، أم كُلْثُوم، ليلَى مُرَاد، مُحَمد القصَبْجِى، رياض السُّنبَاطِى حتَّى عبْدِ الحَلِيم حَافظ، مُحمدِ المُوجِى، محمُود الشريف وَسيد مكَّاوى.. أينَ فَايزَة أحمَد، نَجَاة الصَّغِيرَة، سُعَاد مُحمد، شَادِية، كَارم محمُود وغيرهم كَثيرونَ..

لَقد أدَّوْا كُلَّ ألوَان وفنُون الغناءِ العربى منَ المُوشَّح إلىَ الدّور والقَصِيدة والمَوَّال والأغْنِيةِ والطقْطُوقَةِ والنَّشِيدِ الوَطنِىِّ، حتَّى الَّذِين تخَصَّصُوا فِى فَنِّ المُونُولوج الخَفِيفِ، كانوُا بحَق مغَنين بمعْنى الكَلِمَة، أبهجُوا النَّاسَ وأسْعدوهُم طربًا ونغمًا ونقدًا اجتماعيًّا هادفًا..

رقم الإيداع	١٩٩٩/٧٩١٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5845-8

٧/٩٩/١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)